أمين الريحاني

خارج الحريم

رواية

مطابع صادر ريحاني، بيروت

BOBST LIBRARY
3 1142 01255 1696

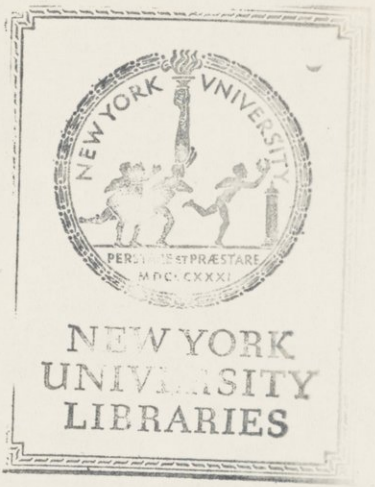

GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY

DATE DUE

1696

امين الريحاني
al-Rihani, Ameen Fares
Khārij al-ḥarīm

خارج الحريم

روايات

الطبعة الرابعة

أشرف على تصحيحها وطبعها البرت الريحاني شقيق المؤلف

N. Y. U. LIBRARIES

الطبعة الاولى : نيويورك ١٩١٧

» الثانية : القاهرة ١٩٢٣

» الثالثة : بيروت ١٩٣٣

» الرابعة : بيروت ١٩٤٨

Near East

PJ
7860
.I452
.K5
1948
c.1

PJ
7860
.I45
.K5
1948
c.1

عنيت بنشره وطبعه مطابع صادر ريحاني – بيروت

الفصل الاول

امر طمحت اليه جهان، فجال في احلامها، وشغل اعماق جنانها . امر تفرد جلياً ساطعاً بين امانيها . فاتجهت اليه بكل كيانها . كان قبلتها في صلاتها، كان كعبة آمالها الروحية والعقلية والاجتماعية، كان رمزاً فيه وعد لناشده ووعيد، بل شارة تأميل وتهديد، تراءى لها في ساعاتها البهجة، وفي ساعاتها العصيبة .

طمحت جهان الى الحرية، وقد كُتب اسمها باحرف من ذهب، ومن دم، في كتبٍ خالدة، وفي صفحات من الهول الزائل . طمحت الى الحرية التي كتبت اسمها بيدها، على لوح نفسها، بعد ان محت ما خُط فيه قديماً من عقائد وتقاليد .

الحرية . وسواء كانت متشحة ثوب الحداد او ثوب الجهاد او ثوب النصر — سوداء الصبغة كانت او حمراء او زهراء — فقد كانت جهان تقتبلها وترحب بها وتجلها في كل حال من احوالها . ولكن الهةً تراءت لها في الاحلام مرتدية رداء شديد الاخضرار، شاهرة سيفاً احدب، وعلى جبينها هلال من الياقوت — الهة اسلامية متوشحة الوان العلم النبوي الداعي للجهاد — كانها تدعو جهان الى حرب مقدسة لا على النصارى الكافرين بل على كفر الرجل وطغيانه . فتظفر بالحرية لاخواتها في الرق والعبودية وتقدمها للام التركية بل للامة العثمانية بل للمسلمين قاطبة هبةً سماوية.

وجهان ابنة رضا باشا وامرأة الامير سيف الدين هجرت منذ ثلاثة اشهر قصر زوجها المشيد على ضفاف البوسفور لانه حنث بيمينه لها، فاتخذ لنفسه امرأة اخرى يقاسمها قلبه . وقد عادت الى بيت ابيها، بما في قلبها من الغم، وبما في روحها من الاحلام، وآلت على نفسها ان تعمل في سبيل الشرف والحرية لنفسها ولاخواتها .

ومنذ ذاك الحين شرعت تسعى سنة كاملة سعياً متواصلاً اثمر قليلاً، واكسبها شهرة جنت غير مرة عليها . دعت جهان

نفسها « ابنة الثورة » وكانت اذا حدثها ابوها في امر نسيبها شكري بك تبسم غير مبالية وتقول : « اني متزوجة من الحرية » .

مرّت الايام وجاء يوم تعرفت فيه بالجنرال فون والنستين المشير في الاستانة . ومنذ ذاك اليوم داخل حبها الصحيح ريبة ملحاحة فكانت تقف مراراً ناظرة الى تلك الصدفة المزعجة ، راغبة بعض الرغبة بشكري بك . ولكن طموحها الى السيادة بعد ان تعرفت الى الجنرال قد احتل شطراً من قلبها الطامح الى الحرية .

في ذات ليلة بعد تنافر واباها ارسلت حوذيها برسالة سرية لم تدرك مغبتها في تلك الساعة . ثم جلست وهي متسربلة سربال الليل على ديوانها الفاخر قلقة البال مضطربة النفس تنتظر رجوع الرسول . ولكي تخفف من وساوسها تناولت كتاب «نيتشه» الذي كانت تحل اقواله المحل الاول وتقرأه باللغة الالمانية ولكنها لم تلبث ان اخذت عيناها ترحل عن الصفحة فنهضت وعليها سيماء الملل والتفت بعباءة من الحرير زرقاء اللون موشاة بالذهب ثم فتحت الشباك ووقفت في رواقه تتنشق الهواء النقي .

كانت ليلة من ليالي الصيف الثقيلة الظل ، لا هواء يحرك

الاغصان في الجنينة ولا نسيم يمازج روائح الياسمين وزهر الليمون فيخفف من نفحاتها التي تؤثر في النفس تأثير البنج.

وتمثل أمامها القرن الذهبي سلسلةً من القوارب والسواري كأنها أنسجة من العنكبوت متعرشة على أسوار غير منظورة. وأشعة الهلال تنعكس على مآذن جامع ايوب مرة فأخرى كلما لاح من خلال السحاب، والسرو في الجبانة القريبة أضاع شكله وميزته فبدا كاشباح من ظلام الرجاء الذي هو رمزه.

سرحت جهان نظرها في هذا المشهد المدلهم فوقعت في قلبها وحشة تلك الليلة وقع خطب جسيم، ولم تكن تسمع شيئاً من خلال السكينة المخيمة حولها، وهي تترقب عودة الرسول، غير وقع حوافر الخيل في شارع قريب. وظلت جهان في الرواق مراقبة حتى دخلت العربة واجتازت بوابة الحديقة. فسمعت بعد ذلك قرع السوط ثلاث مرات، وكانت مطمئنة ان الرسالة قد وصلت الى صاحبها، فعمدت الى النوم.

الا انها استيقظت بعد قليل، وهي على شيء من الغم والكدر، خصوصاً مما دبّ الى سريرها ووسادتها، فقبل خديها وجبينها. نهضت جهان غاضبة لتحجب عنها اشعة الشمس، ففاجأها مشهدٌ من مشاهد الفجر رائع فتان.

جلت الشمس قباب جامع ايوب، ولعب النسيم برؤوس اشجار السرو، وغرّدت الاطيار على الافنان في البستان، وكانت القوارب في القرن الذهبي تتهادى باشرعتها الخضراء والحمراء والبيضاء، والمؤذن في تلك الساعة يدعو المؤمنين الى الصلاة، فُتنت جهان بهذا المشهد، ونظرت خشعة مبتهجة الى الشمس التي تبعث اسمى الامال في احقر الناس، وتُشرب الاحلام اكسير الحياة.

وقفت جهان في الرواق كالشمس المشعة على قباب اسطمبول. فكأن وجهها قد كُوّن من النور، وعينيها من ازرقاق السماء، سماء الشرق، وجدائل شعرها المسترسل على كتفيها العاريتين من ذهب الشفق. ولو كان لاحد ان يراها في تلك الساعة، وفي ذاك الموقف لقال انها ربة من ربات الاغريق. الا انها سجينة. وقد قال الشاعر التركي في وصف مثلها:

« هي شمس تخترق جدران سجنها، هي وردة تنوّر في شقٍ من صخرة حظها. »

ولكن جهان المتمردة كانت تفكر آنئذٍ بغير الجمال الجنسي، والفتنة النسائية. كانت تفكر بما عليها من حق العقل، وبما لها

من قوة الارادة. وكيف لا، وهي تنشد لنفسها ولأمتها أمنية ذهبية تجلت لها كالوحي الآلهي في الفجر الجميل. فكانت تشعر ان فكرها يصعد الى قمم الروح الحرة، وآمالها تشع كالشمس.

تبارك يوم فتح أبواباً ذهبية لنفسها، لعقلها، لروحها، لقلبها وقلب أمتها الناهضة. تبارك فجر عمل سحره بنفس فتاة شرقية متمردة فرأت فيه تحقيق آمالٍ لها ولاخواتها الطامحات الى الحرية والنور، ولاخوانها المجاهدين دفاعاً عن الملة والوطن.

أحنت جهان رأسها امام الشمس، وهي تسبح الله وتتلو الفاتحة. ثم قالت في سرها:

كل ما يجيء به اليوم هو من لدنك يا ايها الرحمن الرحيم ويا رب العالمين.

ولكن عقل جهان عقل غربي التهذيب، غربي العلم والتربية. وقد كانت تصلي صلاةً خاصةً بها، فرفعت وجهها الى الشمس صباح ذاك اليوم وهتفت قائلة:

ايها الرب الكريم القدير، انت الزارع فينا بذور الاماني الخالدة، فلا تلمنا اذا تدبرناها بالتربية. انت مبدع الحب والحرية، فلا ترذلنا اذا حطمنا جدران سجننا. أنت الرحمة، وانت العدل،

فلا تسخط علينا اذا قاومنا كفر الرجل وطغيانه .»

ثم هزت رأسها قائلة : كلا . كانها هي ولية امرها

«كلا . لا نخضع منذ اليوم لظلم الرجل واستبداده . ولا فرق اذا كان زوجاً او اخاً او اباً او صاحب تاج وصولجان»

قالت هذا وخطت نحو منضدتها لتراجع المذكرة التي كانت تدون فيها ما يتطلب منها، فكان يومها هذا الذي تبتدىء به قصتنا كثير الاعمال . صباحاً في المستشفى، وبعد الظهر محاضرة تلقيها في احدى مدارس البنات، وفي المساء تبيع الازهار في سوق خيرية في جنائن تقسيم .

وكان عليها كذلك ان تكتب مقالاً في الجهاد لجريدة طنين . ناهيك بفرضها اليومي من كتاب «زرادشت» للفيلسوف الالماني «نيتشه» الذي كانت تترجمه الى التركية . ان قيام امرأة بقسم صغير من هذه الاعمال مهما كان نشاطها ومهما كان من ثقتها بنفسها ليستوجب الاعجاب .

ولكن جهان لم تكن شرقية على الاطلاق، ولا كانت على الاطلاق غربية مترجلة . فما تجاوزت في نشاطها واقدامها كونها امرأة عصرية . وكثيراً ما حال اعجابها بجمالها دون ثقتها بنفسها .

كانت جهان سليمة الوجدان مخلصة في ما تقول وتفعل . وكانت فوق ذلك ربة ذوق وذات حنكة ودهاء طويلة الباع بعلم الاجتماع واساليب السياسة، جديرة بان تكون زعيمة من زعيمات اميركا المطالبات بالحقوق النسائية، او نبيلة من نبيلات انكلترة او سيدة من سيدات العلم والادب بباريس . ولكنها تركية المولد، وقد قضى عليها ان تقيم في وَسطٍ تقاليده قديمة قاسية، ناهيك بما ورثته عن الاجداد مما كان يحول دون امانيها العالية ويزعزع معقولاً تشرب التهذيب الاجنبي . وقد طالما تجاذبت هذه الاضداد نفسها فاحدثت فيها الحيرة واهاجت البلبال . بل طالما قاست من العذابات الروحية والعقلية اشدها، وهي تحاول ان توفق بين العناصر المتباينة، والنزعات المتناقضة . انما الشرقي لم يتوفق فيما مضى من الزمان في هـذا السبيل فكيف اذاً بالشرقية.

لا غرو اذا كانت جهان غريبة الاطوار متباينة الاميال والآمال . ومع ان الدين كان راسخاً في قلبها، فما تظاهرت قط بالتقوى، ولا كانت تكترث بالخرافات والترهات الدينية .

وقد كانت وهي تنشد امانيها وتسعى لها، متأنية متسرعة معاً، ثابتة حيناً وحيناً مترددة، اديبة بارعة، تقية متعقلة، طامحة

شاردة ناشدة حب وايمان وسيادة . كأن قلبها دائرة للادب والادباء ، وعقلها ديوان للسياسة والسياسيين ، وبيتها جامع للعصريين من المؤمنين . وكان الجنرال فون والنستين قد سعى لها بانعام من الامبراطور ، فزادها ذلك نشاطاً وعزماً ، واكسب حماسها الشرقي اجنحة غربية . وبكلمة اخرى كان الوسام على صدرها شبيهاً بحسام في ساعات الانوثة والزهو ، تفاخر به الرجال ولا تلجأ اليه للنضال .

لبست جهان ثيابها صباح ذاك اليوم وهي تقول : « تبارك هذا الفجر » ولكنها لما اقتربت من منضدتها وقع نظرها على كتاب نيتشه وفيه صحيفة ظاهرٌ طرفها وضعتها علامة لمطالعتها ، صحيفةٌ خط فيها ما يفسد كل مساعيها ، لو اكترثت به . خط فيها ما يلاشي كل آمالها وامانيها الحديثة والقديمة ، لو قرأت مذعنة طائعة . وكانت تلك الصحيفة في الكتاب منذ ثلاثة ايام ، وقد قرأتها ثلاث مرات وكل مرة تزيد بتمردها . ثم قرأتها رابعاً ليلة البارح ، وهي تتمثل الغضب في كاتبها صاحب الامر والنهي .

— من رضا باشا الى ابنته جهان —

« يجب عليك من الآن فصاعداً الا تخرجي سافرة او غير

مصحوبة باحد الخدم. ويجب عليك الا تلقي الخطب، او تتدخلي بالسياسة، او تكتبي المقالات في الجرائد. وقبل كل ذلك يجب عليك ان تمتنعي عن مقابلة الجنرال فون والنستين وعن مراسلته.»

قرأت ما تقدم واسترسلت الى التأمل: ان اباها مخطىء ولا شك في اوامره، فيجب عليها ان تقنعه بخطئه وخصوصاً فيما يتعلق بالقائد الالماني. ولكنها لا تجرأ حتى الان ان تبوح بسر قلبها. ولم تكن واثقة انه اذا ما حان الوقت تستطيع ان تجهر بقصدها السري. فاسترسلت وهي الشرقية المسلمة الى ما ورثته من عقيدة والى ما غرس في قلبها من يقين. فتركت الامور تجري مجراها وتوكلت على الله. على انها كانت تحب اباها وتجله، فوطنت النفس ان تذعن ولو لبعض اوامره.

أعادت العلامة الى الكتاب وراحت تنادي جاريتها فوجدت الباب موصداً. عالجت الغال فلم يذعن لارادتها. فتشت على المفتاح فلم تجده، فلبثت مفكرة حائرة. من أقفل الباب يا ترى؟ أيمكن ان تكون هي نفسها قد اوصدته واحكمت اقفاله اثناء غضبها الليلة البارحة؟ هب انها هي التي فعلت ذلك فاين المفتاح؟ أهذه نتيجة صبرها ثلاثة ايام؟

لبت الجارية نداء مولاتها، ولكنها لم تجسر ان تتكلم.
وجاء غيرها من الخدم فاظهروا استغرابهم وتجاهلوا الامر حتى العبد الامين سليم الذي انصت لصوت سيدته داخل غرفتها، هز برأسه متأسفاً.

انه لامر عجيب. اتسجن جهان في غرفتها ؟ ولماذا ؟

الفصل الثاني

رضا باشا شيخ في الخامسة والسبعين من العمر، رُديني القامة مستويها، طلق المحيا، مهاب الطلعة، كبير الهمة، عصبي المزاج، حاد الذهن، سريع الحركة والكلام. وان في وجهه الاشعث المستطيل نضارة تنفي حجة السن عليه، ولعينيه العسليتين الحادتين حاجبان عريضان هما ابداً على وشك الانزواء غضباً وغيظاً. اما شعره المفروق في منتصف الرأس ولحيته التي كان لا ينفك يعدل نموها لما ينطق عن روح فيه كيسة، ونفس لم تزل خضراء. فهو من اولئك الشرقيين سمر البشرة، اقوياء الاجسام، شديدي البأس، الشبيهة رجوليتهم بمزية للآلهة خصت بالخلود. فلا الايام تقوى عليها، ولا التنعم في دار الحريم

يؤثر فيها .

ولو كان للاتراك ان يدركوا نسبهم ، ويسلسلوا الأسر فيهم ، لعلمنا ولا عجب ان رضا باشا متحدر من اولئك التتر الاشاوس الذين تسوروا جدران بزنطيه ، ورفعوا علم لاسلا فوق قباب آجيا صوفيا

على انه من رجال الدور القديم . لا أعني بهذا انه كان متعصباً . ولكنه ، وان قدّر الاشياء الحديثة او الاوروبية حق قدرها ، لم يرغب كل الرغب بمدنية اليوم . والاصح ان يقال انه كان يرغب بالروح العصرية اللهم في بيت غيره لا في بيته . هو عصري تارة وطوراً قديم ، صلب العود ، صعب المراس ، غير متساهـل في ادارة اموره الخاصة والعامة . وقد كان صريح اللهجة شديدها ، يخدع بصراحته اكثر مما يخدع بتمويهه ودهائه

وما اسرّ من هذا القبيل كرهه للالمان . فقد طالما عضد رسمياً سياسة انكلترا وفرنسا في الباب العالي ، وكان من الفائزين مراراً في حومتي السياسة والوغى . اجل ، قد كان رضا باشا في مقدمة رجال الدولة في الدور الماضي ، ولكنه أخلص النصح لعبد الحميد فلم يدم طويلاً حول العرش . ومع ان

شدة لهجته ، وحرية قوله ، نظراً لمزاجه واخلاصه ، كانا يروقان ذلك الطاغية ، فرجال يلديز وأرباب الباب العالي اسروا له العداء ، وتألبوا عليه ، فأبعد الى بلاد اليمن ، وظل في منفاه حتى الدور الجديد — دور الدستور — فعاد رضا باشا الى الاستانة عودة الابطال وأسند اليه منصب القيادة في الجيش فما عتم ان اختلف والاتحاديين ، فاستقال وأذن له بالبقاء في العاصمة احتراماً لشيخوخته ، وتقديراً لخدماته السابقة

بيد ان سيفه ظل يلمع في حومة الوغى . فمجيد بك اصغر انجاله وشقيق جهان استله في غاليبولي ، وقلده شرفاً جديداً

وكان رضا باشا وهو جندي لا غبار على عثمانيته قد فادى بارواح أبنائه الثلاثة الآخرين حباً بالوطن . فالابن الاول دفن في اليمن ، والثاني في طرابلس الغرب ، وسقط الثالث صريعاً عند ابواب ادرنه

أجل ، ان رضا باشا لَشيخ كثير الاحزان والاشجان ، ولكنه كذلك عظيم الصبر والايمان . ومع انه لم يخدم الحكومة بنفسه في عهدها الجديد خدمات تذكر ، فقد كان يغار على مصالح الدولة غيرة الوطني الصادق الامين ويود حفظ كيانها .

فلو كان له عشرة ابناء لقدمهم ضحية للوطن ، راضياً بسلامة ابنته جهان ، التي كان يخشى عليها من الروح الاوروبية الخبيثة، وخصوصاً من تلك الروح التي تجلت في فلسفة الالماني «نيتشه.»

ولدت جهان واخوها مجيد بك في باريس ، حيث كان رضا باشا، وهو في الاربعين من عمره، ملحقاً عسكرياً في السفارة العثمانية . وقد ولد كلاهما من سليمة احب نسائه اليه، وكانت سليمة هذه كرجية حسناء ، ذكية الفؤاد ، كبيرة النفس والخلق، لطيفة المعشر والذوق، مهذبة بارعة، تحسن الفرنسية كما تحسن لغتها التركية . وكان يسمح لها بعلها ان تستقبل الزائرين سافرة، لانه وان كان شديد التمسك بتقاليد دينه في بلاده، فقد كان متساهلاً خارجها . وقد توفيت سليمة وهي مع بعلها في المنفى

اما جهان ، اصغر اولاده كانت اقربهم الى قلبه . شاخ ولم يشخ حبه لها . بل كان يزداد كلما ازداد في صدره حمل السنين والاحزان فقد كانت جهان والحق يقال ابنة عز ودلال . نشأت في صباها كالزهرة البرية، لا في حقل الحرية كما يتبادر للذهن، بل ضمن جدران الحريم . ولكنها كانت ابداً فوق سيادة امها وخالاتها، تُنبَذ من اجلها التقاليد والعادات، ويحسب اليوم الذي

لا تُسمع فيه ضحكتها يوم شؤم وبلاء

ولم يذخر رضا باشا عناء ولا ضن بمال في تهذيبها وتربيتها على الاسلوب الاوروبي العصري . فقد كان كاترابه الاتراك قصير النظر، ضعيف الرأي، من هذا القبيل . والا لاستدرك نتائج هذا التهذيب . خذ لك مثلاً من نقيض اميأله واذواقه . فقد كان يروقه منظر البيانو في منزله، ولكنه كان يستهجن الصوت منه وكان ينظر الى مكتبة ابنته كما ينظر الى مجموعة سلاحه، وكلتاهما للفرجة لا للاستعمال . وما كاد يفاخر بنبوغها الفطري حتى استعاذ بالله عندما رأى اسمها في الجرائد . فقد استغرب ذلك ايما استغراب ونفر منه ايما نفور ، كأنه شاهدها في السوق سافرة

ولكن هذا التهذيب استقته جهان من معلمة افرنسية ومربية المانية . على انها وان كانت أوروبية العقل، فقد كان ابوها يتعزى باعتقاده انها لا تزال مسلمة الروح والعقيدة. والحق يقال انها ولئن كانت افرنسية المشرب والذوق فقد كانت تركية الطبع والخلق. وقد برهنت عن وطنيتها واخلاصها لامتها بتهليلها للالمان عندما اموا الاستانة كاحلاف تركيا الوحيدين. ودافعت عن الاسلام بغيرة شيخ من مشايخه وبفصاحة عالم من

علمائه . حتى انها كانت تقاوم اباها في الدعوة للجهاد . فان رضا باشا لم يغتر بتغرير الالمان ، ولهذا لم يكن من المستصوبينه وقد جاهر برأيه على عادته ، وكاد يقع في قبضة اعدائه . ولكن الجنرال فون والنستين الذي كان له الحول والطول في وزارة الداخلية ، بل في الباب العالي ، حتى وفي قصر يلديز لم يسمح — لاسباب خصوصية — بمحاكمة والد جهان . وقد طالما صدّ عنه الاعداء من الاتحاديين ، وهو يقول في سره :

ألم تقم ابنته باشرف الاعمال في خدمة الجنود ؟ اولا يحارب ابنه الآن ببسالة الابطال في غاليبولي ؟

هذان اثنان من بيت رضا باشا يعملان باخلاص ونشاط في سبيل الوطن . وقد يكون ذلك في سبيل الجنرال فون والنستين نفسه . لماذا لا يدع الاب اذن ان يقضي بقية حياته المتداعية في امن وسلام ؟

اجتمع الجنرال الالماني بجهان للمرة الاولى في مستشفى الجنود فجاء بعد ثلاثة ايام يزور اباها زيارة رسمية ، ولكن جهان لم تحضر لاستقباله ثم تكررت الزيارات ، وكان يختلق لكل زورة حجة سياسية ، ويسأل اثناء الحديث عن الفتاة . فوافت البهو في زورة الجنرال الثالثة ، وهي بالزي التركي ولكنها سافرة ،

كما كانت تفعل امها في باريس، فسر الجنرال بذلك، وظن هذا الاكرام من لطف الاب وتساهله. بيد ان المنزل الاول في قلبه انما كان لجهان

جهان ! — لو رأتها امرأة الجنرال، التي توفيت قبل اعلان الحرب باسبوع، والتي كانت اشهر اترابها جمالاً وادباً لكانت هي كذلك تعجب بهذه الامرأة التركية الذكية الفؤاد الكريمة السجايا

قال هذا الجنرال في سره . وفي سره كان يردد اسمها ويمثل جمالها

جهان ! — التركية الساحرة، ذات القد الرهيف، والمحيا الفائق بهاء وحسناً . جهان ! ذات اللحظ الفتان، والبسمة المغرية . ان في ناظريها نور العطف، ونور المعرفة . وفي انفها الاباء والشمم وفي ثنايا فمها اللطيفة ايناس ألطف الاسرار . آدابها افرنسية، ولكن جمالها الذهبي المهيب شبيه بالجمال الالماني . وفي كليهما فتنة جردت الجنرال لاول نظرة من قواه كلها، قوى العقل، وقوى القلب معاً . فحدث نفسه قائلا: ولماذا لا تكون لي هذه الامرأة المسلمة الاوروبية التربية والذوق والجمال ؟

ولكن هناك شكري بك يبسم له المستقبل، وتذلل امامه

بواسطة جهان المناصب العالية. على انه ابى يوماً ان يذعن للجنرال فون والنستين ، بل خرج من مجلسه سامد الرأس شامخاً ، دون ان يلقي ما يتوجب ، على ضابط في الجيش ، من السلام . فغضب الجنرال وبدل ان يقدمه لوظيفة عالية في وزارة الحربية ، وفاء بوعده لجهان ، عزم على ارساله الى ساحة الحرب. فلو كان منافس مزاحم الجنرال من اكفائه لما طاقه عثرة في سبيله . فكيف به وهو ضابط مأمور توجب عليه الطاعة ؟

صدر الامر الى شكري بك ان يلتحق بفرقته في غاليبولي. صدر بعد الظهر فلم تعلم به جهان حتى المساء — المساء الذي حدث فيه نزاع بينها وبين والدها بخصوص الجنرال فون والنستين . ولهذا الغرض عينه كانت قد بعثت برسالتها السرية مع حوذيها تسأل فيه ابن عمها الا يغادر الاستانة قبل ان تراه والجنرال فون والنستين في اليوم التالي

وكان الحوزي قد اشار بقرعه السوط ثلاث مرات ان قد بلغ الرسالة . واما ابوها الذي علم بهذه الرسالة هذه من احد الخدم ، وظن انها مرسلة الى الجنرال الالماني ، فقد اقسم بالله وبالنبي ان هذا الموعد لا يكون . لذلك اوصد الباب على جهان عندما كانت في الرواق تترقب اوبة الرسول . وفي اليوم

التالي خرج باكراً لنزهة الصباح على غير عادته

ولكن جهان لم تدر بذلك . فارتدت ثيابها مسرعة وامرت جاريتها ان تستدعي اباها، وهي تعلم ان ليس من عادته ان يخرج باكراً . فباتت حائرة مضطربة البال، وكادت تصدق ما داخلها من الريب وسوء الظن . وعندما امرت الجارية ان تجيئها بمفتاح آخر فتفتح به الباب ادركت الحقيقة المؤلمة . فان الخدم لم يتجاسروا ان يخالفوا امر سيد البيت

الفصل الثالث

استشاطت جهان غيظاً ، واستولى عليها الغم ، وهي لا تدري ما الذي حمل اباها على هذا الامر المشين

و كيف توفق بين سلوكه هذا ورصانته وحلمه؟ وما ذكرت انها قرأت مرة في القصص الاوربية التي تصف الحياة التركية، ان احد باشاوات الدولة او شريفاً من اشراف بني عثمان، يلجأ الى مثل هذه الطريقة في تأديب بنيه

يا للعار ! أيعاملها ابوها كتلميذة مدرسة وهي السيدة التي ينظر اليها نساء الاستانة بعين الاكرام والاجلال ؟ أيذلها هذا الاذلال وهي زعيمة بنات جنسها ترفع امامهن مشعال نور جديد، وتعمل على تحطيم قيود الحريم ؟ يا للفظاعة! اجهان صديقة

النواب والوزراء ومدبجة المقالات السياسية، وربة المنبر، منبر الحرية، وصاحبة الرأي التي طالما انار قوماً واحرق آخرين، ونصيرة المبدأ الذي احدث ثورة في العقول، وحمل الرجال والنساء على العمل في سبيل الحق والحرية . أجهان تُسجن في حجرتها ؟ انه لعار واي عار !

اولم تكن هي اول سيدة تركية مشت في شوارع الاستانة سافرة ؟ اولم تكن هي اول سيدة تركية وقفت في ساحة عمومية تمزق حجابها وتحيي الشمس، شمس الحرية؟ والآن هي اسيرة في غرفتها بامر من ابيها . شق عليها الامر فاستلقت على الديوان وهي تذرف الدموع

وكانت تلوم اباها تارة وطوراً تختلق له الاعذار، وهي تترقب عودته لتدرك حقيقة الامر . فقد يكون اساء فهمها، وقد يكون — تبارك خيال المرأة — مداعباً لها

وما انستها الهواجس شكري بك . فتناولت القلم وكتبت له كتاباً آخر . ولكنها قبل ان تختمه سمعت الجارية تقرع الباب ، وتشير الى كتاب دفعته اليها من خلال الباب والاسكفة . الكتاب من ابن عمها يقول فيه ان قد صدر اليه الامر بان يغادر الاستانة ظهر ذاك النهار . وكي لا يفاجئها

بوداعه ، يود ان يراها الساعة العاشرة والنصف .

مزقت جهان الكتابين كتابه و كتابها . وبما انها كانت تخشى ان يجيء ابن عمها قبل ان يعود ابوها فيشاهد ما هي فيه من الذل والغم ، بعثت اليه بهذه الكلمة :

« لا ترعج نفسك بالقدوم ، فاني ذاهبة لمقابلة الجنرال فون والنستين في منزله ، وسأراك بعد ذلك . لا تبرح منزلك قبل الظهر

ثم كتبت الى الجنرال والى وزير الحربية تلتمس من كليهما السماح لشكري بك ان يبقى يوماً آخر الى ان تتمكن من مقابلتهما بعد الظهر . وقد بعثت بالكتابين مع سليم عبدها الامين . وفي الساعة العاشرة جاءت الجارية تنبئها ان رئيس الديوان في وزارة الحربية يرغب في مخاطبتها بالتلفون .

وكانت لا تزال اسيرة ، وكان ابوها لا يزال خارج البيت .

قالت جهان تخاطب الجارية :

ـ قولي له يا زليقة انني في الحمام واصغي جيداً لما يكون الجواب

وما لبثت زليقة ان عادت تقول :

ـ يأسف سعادة البك انه ليس في امكانه العمل بما تريدين

وعاد سليم يحمل جواباً من الجنرال فون والنستين، وفيه يقول ان سيخاطب وزير الحربية بالتلفون حالاً، ويطلب اليه ان يقضي حاجتها . وكانت تتيقن الفوز لان الكلمة الاولى في وزارة الحربية في تلك الايام انما كانت للقائد الالماني . فتنفست جهان الصعداء وهي تشكر الله

الفصل الرابع

قلما يخرج شيطان الوساوس معنا اذا طلبنا النزهة فراراً منه. واذا فعل، بعد ان يظفر ببغيته منا، فلا يماشينا الى منتهى الطريق، ونحن اذا ابتغينا البعد منه، ومن انفسنا المضطربة، انما نبتغي الخلاص من غضبة منكرة، بل نبتغي الراحة والامان. وقد نمتطي دابة الشيطان الى غرضنا، فنهلكها ولا نصل اليه. فنسير على الاقدام مستبشرين، ونعود راضين، تصحبنا رفيقة صالحة امينة، يدعوها الناس الحكمة

عاد رضا باشا الى منزله يردد المثل المأثور: «العجلة من الشيطان» فان نزهة الصباح اثمرت خيراً في نفسه، فاعادت اليه عطفه الوالدي، ورأفته الابوية. وعندما فتح الباب لجهان كانت

نار الغيظ قد انطفأت في صدره . ومع ان ما بدر منه مساء البارح لا يستوجب الندم، في حال غير الحال الحاضرة، فقد خشي ان يدفع بابنته جهان الى تطرف في سلوكها، فتفسد عليه اقصى امانيه . وكيف لا وقد وطن النفس على ان ينقل من الاستانة الى قونية، العاصمة العثمانية القديمة، مصطحباً ابنته وصهره المقبل شكري بك حيث يقضي واياهما آخر ايام حياته . لذلك رأى من الحكمة ان يجامل جهان ويداريها

كانت جهان جالسة على الديوان قرب منضدتها وهي محنوة الرأس مطرقة مفكرة . ولما دخل ابوها ومشى اليها ومفتاح الباب بيده ، لم تتحرك ولا رفعت نظرها اليه . فجلس بالرغم من ذلك على كرسي الى جانبها واخذ يدها بيده قائلاً :

— جهان — عزيزتي، تأسفت لما حدث، وعسى ان لا نعود الى مثله

ثم تصدر امامها وقال: — انظري اليّ الآن وقولي لي، هل بين البنات حتى القرويات منهن من تخاطب اباها كما خاطبتني ليلة امس ؟ الا ينتظر منك وانت السيدة المهذبة ذات المواهب السامية ان تكوني مطيعة لابيك محترمة له ؟ البر بالوالدين هي من مزايا عنصرنا ومن اقدس تقاليدنا ؟ وماذا يقول عنك الذين

يقرأون كتاباتك في الصحف والذين يسمعونك تخطبين، والذين ينظرون اليك كحاملة نبراس النور والمعرفة، اذا اخبرتهم ان جهان تعصي اوامر ابيهـا وتتمرد عليه؟ وهي تسمعه فوق ذلك الكلام المهين

فقالت جهان وقد اغرورقت عيناها بالدموع: معاذ الله معاذ الله ان اكون عقوقة

— ولكنك يا حبيبتي لا تكترثين لما اقول ولا تذعنين، على عادتك السابقة لما اريد. حتى انك لا تستشيريني في امورك، ولا تقرأين امامي ما تكتبين، كما كنت تفعلين

— ذلك لانك لم تكن قاسياً جائراً كما انت اليوم واعذرني اذا قلت انك تفرض عليّ المستحيل، وتقاومني في اعمالي كلها، على غير عادتك

— وهل ألام وقد تغيرت الاحوال؟ افلا ترين الجواسيس — المان واتراك — في كل مكان. وقد اصبح المرء مسالماً كان او مشاغباً في خطر دائم. لا يأمن احد على حياته في هذه الايام. افيحسن منك والحالة هذه ان تتدخلي بالشؤون السياسية، وانت ابنة رضا باشا؟ او يليق بشرف محتدك ومقامك ان تكثري من زياراتك النوادي والنزل في بارا؟ ايجوز ان تذهبي

لمقابلة الجنرال فون والنستين ؟ او تظنين ان المرأة الاوروبية تستحسن سلوكك هذا ؟

— ذهبت مرة واحدة لقضاء حاجة تتعلق بالمستشفى

— كان حرياً بك ان تكتبي اليه بخصوصها

— ولكنها مهمة وحال الوقت دون المراسلة

— عندك الرسل والخدم

فنهضت جهان عن الديوان وهي تقول مسترحمة : دع هذا الرجل ولا تعذبني بشأنه

— لا اكتمك اني اكرهه واوجس شراً من زياراته لنا . واعيد ما قلته الليلة البارحة : ان ما تذيعه الصحافة عنك وعنه عار علينا لا اباحثك في محالفتنا والمانيا فلك رأيك فيها . ولكني اعيد ما قلته الليلة البارحة : ان محالفة بيتية مع المانيا لمن المستحيل المستحيل ولا شك انك توافقيني على الاقل بانها مجردة من التعقل والحكمة

لا تظني ، يا حبيبتي ، اني اقاومها لاسباب دينية ، لا والله ، لست انا من رجال الدين ولا من رجال الفقه ، ولكني لا اريدها لاسباب حسية وعقلية . انتِ يا جهان عاقلة حكيمة رصينة . فماذا تقولين في هذا الرجل ؟ الأنه اليوم الحاكم بامره

في الاستانة ينبغي ان نتقرب منه، وهل هو غير الغريب البعيد عما هو مألوف ومقدس في حياتنا وعاداتنا ولغتنا واخلاقنا ودیننا وتقالیدنا ؟ وعدا كل هذا ، انه ارمل ، وعمره ضعفا عمرك

ـ بدرم . اوافقك على كل ما ذكرت ولكن . . .

قالت هذا وسكتت حائرة

ـ ولكن ؟

ـ لا ادري ، بدرم . لا اعرف الكلمة التي تعبر عن عواطفي . بل لا اعرف ما هي عواطفي

ـ لا يليق بك مثل هذا العذر . افصحي عما يجول في خاطرك . ولا تخفي شيئاً عني

ـ اخاف ان تزدري بي

ـ معاذ الله . انت امرأة حصيفة ، وانا والدك المحب . فليس ما يدعو الى الخوف ، او الى الازدراء

ـ خذني اذاً بحلمك . مساء اليوم الذي قابلت فيه هذا الرجل لاول مرة تراءت لي رؤيا ـ ليست حلماً ـ بل رؤيا . وكنت اذ ذاك جالسة الى منضدتي اترجم « نيتشه » فأغشي على عيني فجأة ، واصبح عقلي كخلية النحل غلياناً ، فصرت ارى

نقطاً صفراء تتذبذب امامي على صفحات الكتاب، فسقط القلم من يدي ورأيت هذه الغرفة تمتلىء تدريجاً . . . ولكن ما الفائدة ؟ انت تهز برأسك قائلاً : انها اضغاث احلام

فاجاب الباشا وعلى وجهه تمتثل الرغبة بالحديث : — انا مصغ تمام الاصغاء كملي حديثك

— خُيل اليّ ان في هذه الغرفة شبح امرأة كانها والدتي وكاني اراها . بل رأيت الشبح يتضاعف ويتكاثر كلما حدقت به حتى رأيت امامي مئات من النساء في اثواب سوداء، راسفات بالسلاسل والقيود، وعيونهنّ تنظرن اليّ طالبات مسترحمات، كانهنّ يرغبن بمخاطبتي وبابلاغي حقيقة هائلة . كانهنّ يطلبن مني القيام بعمل ذي شأن . وقد سمعتهنّ ينطقن بهاته الكلمات : « اما تضحية واما انتقاماً ! » بل سمعت صوتاً فوق الاصوات كلها وعرفته . هو صوت امي وهي تقول :

اما تضحية واما انتقاماً . انظر، ابي . قد كتبت الكلمات كما سمعتها

كان ابوها يلهو بسبحته، وهو يستمع وعندما أرته الورقة سألها قائلا : ما فحوى هذا ؟

— اعلم ان ذاك الصوت هو صوت الام — ام عنصرنا —

ام الوف من الاجيال، ام ماضينا . هو صوت يدعوني الى المفاداة في سبيل أم مستقبلنا . وهو عمل خطير لا بد ان تقوم به احدى نسائنا فان لم يكن انا فغيري «اما تضحية واما انتقاماً». هذا تفسيري لتلك الرؤيا التي ما تراءت لي الا وشعرت ان شيئاً فائق القوى الطبيعية يسوقني الى هذا الرجل . ولقد كذبت عليك اذ قلت اني ذهبت لمقابلته مرة واحدة . فقد زرته في منزله ثلاث مرات منذ آخر زياراته لنا ؟ ؟

— انت ذهبت الى منزله ؟ جهان — ابنتي ؟ ؟

— نعم ذهبت ولكن زيارتي كانت لشؤون تتعلق بالامة كظم رضا باشا غيظه ، وسألها بصوت هادىء.

— أتحبينه ؟

— كلا

— اذاً ؟

— ارجوك، بدرم، الا تسألني سؤالاً آخر . اني عاجزة عن هذا الامر فاني لا استطيع لا استطيع الجواب . لست ادري، لست ادري

فصاح بها وفي صوته غصة وارتعاش : جهان، ابنتي ؟ لقد صدقت والله ظنوني . صدقت والله ظنوني . قال هذا ونزع

طربوشه ليمسح العرق عن جبينه

عندئذ تقدمت اليه جهان فجثت امامه باكية، وهي تقول بصوت متهدج

ـ كلا . كلا . يا ابتاه . ليس الامر ما ظننت . اقسم بالله وبالنبي ان الامر ليس ما ظننت . لقد اسأت فهمي . وقد تكون اسأت اليّ . اني ابنة رضا باشا وشرفه شرفي دائماً ابداً

ـ اذن ما معنى رسالتك السرية الى الرجل الليلة البارحة ؟

ـ اوَ ظننتها للجنرال فون والنستين ؟

ـ اذن لمن ؟

ـ لشكري

تنفس الاب الصعداء، واحست الابنة بشيء من الفرج . وقد وقف الاثنان عند هذا الحد من الحديث فلاذا بالسكوت هنيهة كما يلوذ الانسان بغارٍ من الزلزال . ثم قال الاب :

ـ وما الداعي لمراسلة شكري السرية وخصوصاً في الليل ؟

ـ قد تلقى امراً عسكرياً بان يسير بعد الظهر الى ساحة القتال

انتصب الباشا على قدميه وقد قبض على لحيته بيده المرتجفة

ـ ولكني كتبت اليه ان لا يسافر قبل ان يراني، وهاك الجواب الذي جاءني منه

ـ قسماً بالله ونبيه، لن يسير شكري بك الى ميدان القتال. لقد وهبت الامة ثلاثة ابناء، والرابع هو الآن في ساحة الوغى، وقد لا يعود حياً اليّ. قد لا اراه مرة اخرى. كفى مني تضحية للوطن وقد كان في استطاعتي ان اضرم النار على الالمان فنقصيهم في الاقل عن الاستانة. لقد طفح الكيل، ومات ضباطنا في ذل من غطرسة الالمان وتعسفهم. وقد لا يذعنون غداً لاوامرهم الوحشية. اما انا فقد اخلدت الى السكينة لا لاجلهم بل لاجل سيدي ومولاي البادشاه، الذي لا احني هامي طوعاً لسواه. واني ذاهب في الحال لمقابلة جلالته... شكري بك لا يسير الى ساحة الحرب. لا يسير اليوم، ولا يسير غداً، الا اذا امر البادشاه. اما امر الاجنبي، فلا يطاع، ولا يطاق

ـ ولكني كتبت اليه

ـ الى من ؟

ـ الى الرجل الذي ذكرت. وقد وعدني ان يلغي الامر،

او ان يؤجله .

— كان ينبغي ان تستشيريني قبل ان تفعلي ذلك . فان كتابتك اليه في هذا الامر لا تجدي نفعاً فهو اذا تباطأ في كشف حقيقة ما بينك وبين شكري، لا يتباطأ في اتخاذ الوسائل التي تفسد عليك مساعيك . سيرسل شكري الى ساحة الحرب، الى حومة القتال، الى الموت ليظفر بما يبتغيه منك . ولكنه لا يفلح والله . لا يفلح وانا حي . فاعلمي يا جهان ان شكري لا يذهب الى ساحة الحرب ، وانك ستتزوجين منه غداً بل اليوم — اليوم

— اتزوج منه ثم يُرسل الى حتفه اليس كذلك ؟

— قلت لك لن يذهب الى ساحة الحرب

جاءت الخادمة تدعوهما للغداء . فدخل الاثنان الاب والابنة وقد اتفقا ان يسعيا معاً لالغاء الامر في سفر شكري بك او لتأجيله . وقد قال الباشا على المائدة اذ عاد الى الموضوع :

— متى يعلم هؤلاء الالمان ان نفوذهم مهما عظم ينتهي عند السلاملك في بيوتنا ؟ يمكنهم ان يستبدوا بامورنا في الباب العالي حتى وفي يلدز ولكنهم، والله والنبي، لن يستبدوا بامورنا في منازلنا

الفصل الخامس

كان رضا باشا وابنته يتناولان الغداء عندما جاء الخادم يقول :

ـ ياور الجنرال فون والنستين يبغي مقابلة سعادتكم

ـ قدم سكاير وقل اني قادم

احنى الخادم رأسه طوعاً ثم لمس فمه بانامله وانصرف .

وبعد قليل مشى الباشا الى السلاملك، حيث كان الياور في انتظاره، فسلم وقدم الرسالة التي جاء بها، ثم قال :

ـ وسعادة الجنرال قادم الساعة الرابعة بعد ظهر اليوم ليقوم بواجب التهاني لسعادتكم

فض رضا باشا الرسالة وسرح بها نظره، ثم قال وهو لايزال

واقفاً :

— بلغوا سعادة الجنرال اننا نرحب بقدومه

وعاد الى ابنته فاطلعها على الرسالة دون ان يظهر ما اعتراه من سرور

— ما قولك يا جهان بهذا الالماني المستترك . يجاملنا ليكسب ثقتنا

قرأت جهان الرسالة لا كما قرأها ابوها ازدراء ، بل بشيء من السرور والامتنان

وكيف لا . وهي تنبيء بان جلالة الامبراطور قد منح مجيد بك نجل رضا باشا وسام الاستحقاق لاستبساله في ساحة الحرب

فجهان ليست ممن يزدرون مثل هذا الانعام ، وقد ودت ان تكون هي كذلك مثل اخيها المحبوب جديرة بعطف الامبراطور واعجابه . وما خفي ذلك على ابيها ، فشاء ان يكون سرورها برسالة الجنرال فون والنستين مقروناً بسرورها في استقباله ، فقال لها : لك ان تستقبليه عندما يجيء اليوم وترحبي به . اما انا فلا اكون هنا — اني ذاهب الى يلدز

وفي تلك الساعة جاء الخادم بالجرائد اليومية يقدمها الى

سيده ، وفيها بيان باسماء القتلى والجرحى في الاسبوع الماضي ، فمر النظر به ووقف مبهوتاً . رفع الجريدة الى ناظريه ليتحقق الاسم فعرته الرعشة وسقطت الجريدة من يده

مجيد بك ابن رضا باشا وكان اسمه بين اسماء الشهداء !

وفي حقل آخر من الجريدة كلمة عن استبسال مجيد بك ختمها الكاتب بتعزية والده الشيخ الجليل

جلس رضا باشا على الديوان وهو يردد انا لله وانا اليه راجعون اما جهان فكاد يغمي عليها من هذه المفاجأة المفجعة . وبين هما في غمرة من الحزن والاسى جاء الخادم يبشر بقدوم شكري بك

دخل الضابط مضطرباً ، فقبل يد الباشا وسلم على جهان ثم قال :

ـ جئت الآن من وزارة الحربية ، وعندي الخبر اليقين . كلهم في الوزارة ، من الوزير الى الحاجب ، يلعنون الالمان ، ويستنزلون عليهم غضب الله ... يا لها من فظاعة ! جاء في التقرير ان مجيد بك قتل خطأ ! . ما شاء الله الالمان لا يقتلون خطأ . هو كذب وافتراء . فقد علمت الحقيقة كلها . وها هي كما سمعتها من فم الكاتب الاول في الوزارة

امرت القيادة الجنود ان يهجموا على خط من خنادق الاعداء ويستولوا عليه مهما كلف الامر، فتراجع قسم منهم، فشهر ضباطهم الالمان المسدسات عليهم، فاحتج الامير الاي مجيد بك (وانت تعلمين ما هو عليه من عزة النفس والشمم) ثم قال متمرداً : انا لا اطيق ان ارى المانياً يشهر مسدسه على جندي عثماني . فكان جواب الضابط وجيزاً قاطعاً . رصاصة لا غير، فخر مجيد صريعاً . وقد اقتدت به الفرقة كلها فكان جزاء تمردها فظيعاً . والذين نجوا من رصاص الضباط الالمان هلكوا بقنابل مدافعنا

— اولم يبلغ الجنرال فون والنستين الخبر ؟

— وهل تعلم وزارة الحربية ما لا يعلمه ؟

— مستحيل ، فلو بلغه الخبر لما كتب هذا الكتاب . وما معنى انعام الامبراطور

— يرموننا بالرصاص ويمنحوننا الاوسمة ! ان امرهم لعجيب ، انه لفظيع

دخل الخادم يقول : الجنرال فون والنستين

ظل رضا باشا جالساً على الديوان ، وما تحرك شكري بك . اما جهان فسارعت الى الباب غضبة ساخطة وهي تقول : انا

اقابله . فمنعها ابوها فأصرّت

ـ يجب عليّ ان اراه

ـ ليس الآن ، ليس اليوم يا ابنتي . اصبري ريثما يهدأ غضبك واذهبي الآن الى غرفتك

عادت جهان منكسة الرأس تستر وجهها بيديها . واعطى رضا باشا الجريدة الى شكري بك قائلا :

ـ اطلع الجنرال عليها وقل له انني لا استطيع ان اقابله اليوم

جاء الجنرال فون والنستين ببزته الرسمية، بخوذة بيضاء وهاجة وبجزمة سوداء يشع مهمازها، يصحبه مستشاره وياوره . وما راقه ان ينتظر ولو بضع دقائق في السلاملك . بل كان يحتدم غيظاً لان الباشا وقد كان عالماً بهذه الزيارة الرسمية لم يسرع لمقابلته عند الباب وقد اشتد غيظه عندما جاء شكري بك يحمل رسالة الباشا اليه

تجاهل الجنرال الخبر الذي نشرته الجريدة ، وقال مخاطباً شكري بك :

ـ وما السبب في بقائك هنا حتى الآن ؟

ـ اني مسافر غداً انشاء الله

ـ ولكنك أمرت بان تسافر اليوم

ـ ما تمكنت

ـ انك غير معذور

ـ قال هذا وهو يكظم غيظه . فقد اهانه رضا باشا ، وما اطاع شكري بك امره . وليس لاحدهما عذر يخفف في الاقل ذنبه . وقد كان اشد نقمة على رضا باشا فما رأى حتى في حزنه ما يبرر فعلته . فقال لنفسه وهو خارج من البيت :

ـ وان مات ابنه اليس في انعام الامبراطور ما يعزيه ؟ انعام هو شرف لبيته ، ولسلالته ، يفخرون به ويفاخرون ؟ اجل كان اولى به ، حتى في مثل هذه الساعة ، ان يقتبل التهاني .

سارت العربة وهو فيها يستعر حنقاً وغضباً . ايحتقر التركي قائداً المانياً ؟ ايزدري التركي انعام الامبراطور ؟ . ولكن الجنرال فون والنستين جاء يحمل الى الباشا شرفاً آخر لو ادركه لقال انه اعظم واجدى ، فقد جاء يقرن اسمه باسم ابنته جهان . وهو لا يزال محباً لها راغباً بها . وسيحتمل من اجلها اهانات ابيها وابن عمها . لذلك كتب اليها ، عندما عاد الى بيته ، رسالة تعزية وقال انه سيزورها في الغد

الفصل السادس

ان موت مجيد بك في ساحة القتال وفي تلك الحال زعزع في جهان اعجابها بالالمان . ولكنها حارت في سلوك الجنرال فون والنستين . ان هناك سراً يتعدى ادراكها . فاذا كان هو مصدر الامر المسبب لتلك الفاجعة فما معنى رسائله الودية اليها والى ابيها ؟ ما معنى تردده اليهم كانه لم يأت امراً فريا . ثم انها علمت ان الجنرال لم يباحث وزير الحربية بشأن شكري بك كما وعدها ذلك الصباح . وما هي بالمرة الاولى التي اخلف بوعده لها

اطلعت اباها على كتاب الجنرال وسألته رأيه . فنصحها الا تستقبله

وكان شكري بك حاضراً فقال :

— ولكن الامر بسفري هو بيد الجنرال ولا يستطيع احد سواه ان يؤجله او يلغيه

شكري بك شاب جميل الطلعة ، دمث الاخلاق ، شديد نزعات النفس ، ضعيف الارادة لا يأبى التزلف ولا يثبت في قول او عمل

التفت اليه رضا باشا وخاطبه قائلا :

— انت تعلم يا بني اننا معشر الترك موصوفون في اوروبه بالتزلف والجور والمراوغة . والتبعة في ذلك هي على اولئك الذين يتولون ادارة شؤون الدولة . نعم ، ان اولي الامر فينا يجرون العار والبلاء على الامة جمعاء . وهل يستطيع المرء مهما عظمت اخلاقه ان يفدي امته ويخلصها مما هي منغمسة به ؟ لم تكن المراوغة يا بني من شأني ، ولم اكن ممن يتزلفون ويموهون . فهل تريد ، وانا في آخر عمري ، ان اقف اليوم في باب الماني اساله صدقة ؟ لا وتربة اجدادي . لا افعل ذلك . اذا كان هذا الرجل مثل اولياء الامر فينا فليس ذلك من شأني . اما انت فلن تذهب الى ساحة الحرب اللهم اذا كانت كلمة رضا باشا لا تزال مسموعة في يلدز . انا ذاهب غداً لاقابل جلالة

السلطان ، وبعد ان يلغى الامر ان شاء الله نسافر الى قونية . ولقد امرت الخدم ان يتاهبوا للرحيل . نعم سنبعد من جهنم الاستانة . وسنقيم في قونية بعيدين عن الالمان ومطاياهم — قوادنا الملاعين . هناك اريد ان اقضي بسلام ما بقي لي من الحياة . حتى اذا حل القضاء تغمضان انت وجهان عيني ، وتكونان حولي في مأتمي . واني ارجو ان تساعداني في تحقيق رغبتي

ولكن جهان قالت لشكري بك بعد العشاء انها لا تستطيع ان تنتقل الى قونية

— لي في الاستانة اشغال كثيرة ونحن اليوم في اصعب المراحل التاريخية لبلادنا وامتنا . يجب ان اكون في وسط المعمعة حتى النهاية . لا اهجر اخواتي الطامحات الى الحرية ، العاملات في سبيلها . لا والله ولا اترك اخواني الجرحى في المستشفى . ان للامة وللحكومة عليّ حقوقاً ، وعليك ايضاً يا شكري . فعار علينا ان نفر من الجهاد ، ثم ندفن انفسنا في مجاهل الاناضول

ولكني اشك ان الامر سيلغى . ساسافر غداً . وبعد ذلك فلا اراك ابداً . انت تعلمين ان ليس لجلالة السلطان شيء

يذكر من السلطة في هذه الايام ، وان النفوذ الاكبر لهذا الالماني ، وليس بين وزرائنا او مشايخنا من يجرؤ ان يقاومه او يرد كلمة له . افلا ترين اذن ان من الحكمة ان نجامله ونداريه ؟ قد اكون تسرعت في ما فعلت ولكني اغار على نساء بلادي ، بل اغار عليك من سوء يكنه رجل اجنبي

سكتت جهان هنيهة ثم قالت بلهجة شديدة

لا يمكنني ان اطرق باب هذا الرجل بعد الآن ولا حق لي ان اسأله قضاء حاجة ما

ثم قالت كانها تخاطب نفسها ! وان لم اقابله غداً ، يزداد سخطاً وغضباً ، وننسى كلنا تحت رحمته — انت — ووالدي وانا

— تحت رحمة الالمان . هذا ما كنت اقوله لك دائماً

— ولكني لا احسب ان مصلحتي الشخصية ومصالح امتي هي واحدة

— ستقابلينه اذاً من اجلي — من اجلنا كلنا

— يظهر انك تخشى الذهاب الى ساحة الحرب

— انك تهينيني يا جهان ، وقد كنت تحسنين في الاقل الظن بي . الم تقولي انت ان شغلي في دائرة الحربية ؟ اوَ لم تبوحي لي مرة انك لا تحتملين فراقي ؟

— بلى قلتُ ذلك

— وهل تغيرتِ الان ؟

— نعم يا عزيزي شكري . كل شيء يتغير في هذه الايام ، ولا يثبت في الحروب غير القوة . اما الناس وآراءهم فكلها ضحية للحرب ، للقوة

— أهذا ما يعلمه فيلسوفك الالماني ؟

فقالت وهي تنظر اليه نظرة الانوف الغضوب

— دعك والتهكم !

— اما انا فلم اتغير . انا لا ازال أُحبك . انا اعبدك . واقسم بالله ان لا تقاسمني سواك قلبي

— ذكرتني بالامير سيف الدين

— ولكني لن احنث بوعدي . اقسم بالله وبنبيه

— التقلب — اله الزمان !

— بربك يا جهان لا تعذبيني

— انت تعذب نفسك

— اذن عديني . اذا ذهبت الى ساحة القتال . . .

فقاطعته قائلة : لا استطيع ان اعدك بشيء

— اتقترني بي قبل سفري غداً ؟

ـ لا وقت عندي لهذا الامر الآن

ـ والله ان هذا الالماني ...

ـ هو لسوء الحظ اكبر منك، وعليك ان تذعن لامره.

كان شكري بك يتمشى في الغرفة ، فدنا من جهان وجلس الى جنبها على الديوان وخاطبها قائلا :

حكمي عقلك ـ لا اخالك تكسرين قلب والدك ـ ولا اخالك تعذبين من يعبدك . انا ذاهب الى ساحة الحرب اذا كنت تريدين . والحق اني كنت قد عزمت على المسير قبل ان وصلني كتابك . فعلى ما تطلبين ان اؤجل سفري ؟ حكمي عقلك . اني امكث معك في الاستانة اذا كنت تشائين الذهاب الى قونية . قابلي الجنرال فون والنستين غداً من اجلي ـ فاني اطلب تأجيل الامر يومين فقط . وارضى اذا كان سعادته يعدني ...

ـ وان كان سعادته المانياً فقد تعلم السياسة في مدرستنا . فانا نفسي لا اثق بمواعيده

ـ اذن علينا ان نعامله بمثل ما يعاملنا

قال هذا بلهجة المقتنع المطمئن

ـ ارى يا عزيزي شكري ان تطيع وتمشي ـ واني

استودعك الله

ـ قالت هذا وخطت نحو الباب فناداها شكري . قفي قفي . لا تسيئي فهمي . انت تعلمين اني مطيع لك واني مخلص لوطني فماذا يفعل المرء اذا وقع بين الواجب والحب ...

ـ على المرء ان يكون في الازمات الوطنية وطنياً شجاعاً

ـ ما سمعت منك مثل هذا الكلام قبلاً . ماذا جرى ؟ وبماذا اسأت اليك ؟ فهل تظنين اني قليل الوطنية فتوبخيني ؟ هذا لا يطاق لا والله . انتِ قاسية القلب ، ظالمة

فاشارت اليه بيدها ان اسكت ثم قالت :

ـ انك في ساحة الحرب اكثر كفاءة ، على ما ارى منك في الوزارة الحربية . وان فقدك الدهاء للسياسة فلا تفقدك الشجاعة للقتال . سر بامان الله . واذا عدت بطلا اقترن بك

ـ انك تستبدين بي لاني احبك واحترمك ، واذعن لاوامرك

ـ انك مخطىء على عادتك . وقد لا تهتدي لاغراضي ولو اسهبت في البيان . ولا ادري والله كيف اوضح لك حقيقة امري وخصوصاً الآن . عليّ ان اكتب مقالاً لعدد الغد من الجريدة ونحن في الساعة العاشرة فاعذرني . انما اقول بوجوب

ذهابك الى ساحة القتال لتذود عن وطنك . سر بامان الله ، وهاك قبلة الوداع ! الا تريد ان اقبلك ؟

هزت جهان كتفها وهي تبتسم . وخرج شكري بك متألماً ألم الرجل الذي يظن نفسه محتقراً من المرأة التي يحبها . فراح يلعن الروح الاوروبية ويقول :

حرية المرأة — مرأة العصر — نكبة الزمان !

الفصل السابع

دعت جهان العبد سليماً الى غرفتها لتقول له ان دواء النوم الذي جاءها به لا يفيد

ـ لا بد ان يكون عند صاحبكَ الصيدلي شيئاً اشد منه فعلاً ؟ اني في حاجة الى النوم يا سليم

ـ امرك ، خانم . ساذهب تواً اليه . فقد قال لي ان عنده دواء يطيعه النوم طوع عبدك . ولكن ...

ـ ولا عذر . عجل وجئني به حالاً

ـ امرك ، خانم . ولكن الصيدلي قال ان لهذا الدواء تأثيراً على القلب .

ـ ليس هذا من شأنك سر سير البرق وجئني به .

وما هي الا بضع دقائق حتى كان العبد الطويل النحيل ، الشبيه بالمارد في قصص الف ليلة وليلة في كوخ الصيدلي

وكانت جهان ، وهي ترقب عودته ، تعلل نفسها بشيء من نعمة النوم ولكن شكري بك ظل يشغل بالها ، ويتجاذب اميالها وكانت تود ألا يسير الى ساحة الحرب ، وتفكر في ماعساه يضحي من اجلها . ثم قالت تخاطب نفسها : وهل يضحي التركي شيئاً في سبيل المرأة ؟ هل يقبل التركي المهذب ، الذي يفاخر بانه عصري اوروبي الروح ، ان يقترن بسيدة تركية حرة ؟ هل يصدق شكري بك فيكتفي بامرأة واحدة ؟

وقد حارت في ما كان من رغبته بتأجيل الامر العسكري . فهل يظن انه يستطيع ان يقنعها او يجبرها على الاقتران به خلال يومين ؟ وقد يكون تواطأ مع والدها ليذهبا بها الى قونيه . ولكنه ساء السلوك كجندي يدعي الشجاعة والوطنية ، فذهب في رقة شعوره الى حد التخنث .

ولكنها كانت معجبة به عندما ابى ان تكون هي العارضة حبها فرفض منها قبلة الوداع . هو ذا الرجل الذي تطمع بالسيادة عليه ، وتطمع كذلك بان تكون المعشوقة المعبودة . وقد ودت

في تلك اللحظة ان تمثل لديه دور محظية طوع بنانه ، فتستسلم ، وهي تجثو امامه الى كل ما فيه سرور الرجل واعتزازه .

هي ذي الروح الموروثة التي استحوذت على قلبها وملائته كآبة وغماً . هي ذي الروح التي تقاوم طموحها الى الحرية . فتعود بها الى ذكريات الحريم ، وتصور لها صوراً ذهبية لما في الحريم من ترف ورخاء ، وراحة وهناء ، وسكينة يزينها الاستسلام وتزيد بسرورها نغمات العود ، او قرقرة النارجيلة ، التي يفوح منها شذا الورود . الحريم وما فيه من حق وجمال ، ومن سلوى القيل والقال ، ومن عزلة للنفس ، ونعمة للجسد . وهمس وراء الستار ، ولعب بالرمان والنار . من نقد للرجال ، وتهكم على اصحاب الدعوى منهم والمحال ، ناهيك بما يجمع بين نساء الرجل الواحد من وحدة القلوب الفارغة والآمال المفقودة ، بل من المساواة في الحظ ، وفي خمول الذكر ، وفي المستوى العقلي الذي يستقيم فيه امر الرجل ، وتحلو عنده التقاليد والعادات . تلك هي روح الوراثة التي كانت تمثل الحريم هذا التمثيل الباهر لجهان . فتغالبها ليلاً بعقاقير عبدها سليم ، وتنتصر عليها في النهار بما وُهبت من قوى العقل ، وبما كانت تنشده من الحرية وتعمل في سبيله من المقاصد الاجتماعية

السامية

ولكن اي شاب تركي يسير واياها الطريق كلها فيحبها ويحترمها ويحسن فهمها ؟ بل يشعر معها باسمى رغائبها ، ولا يزدري احلامها المقدسة وبكلمة اوضح اي تركي يستطيع ان يكون لها صديقاً ورفيقاً وزوجاً معاً

لم تكن تثق كل الثقة بشكري بك ، فقلما لامس عقله عقلها وهي التي تقدم العقل على القلب ، او تبتغيهما بمنزلة واحدة . الا انها ارسلت الليلة البارحة رسالة لتوقفه عن الذهاب الى ساحة الحرب . وعادت بعد ذلك تناقش نفسها الحساب وتقول : انما فعلت ذلك اكراماً لوالدي . وهي ، وان صدقت كلامها ، لا تكذب قلبها

انها لعقلية الشك والخيبة هذه العقلية . ولا يفهم صاحبها كل ما يبتغيه او بعضه . اما جهان فقد كانت تقف فجأة في غمرة المجاذبات لتسأل نفسها حتى السؤال الجارح . وقلما كان جوابها دوماً مقروناً بالعمل . فقد طالما تاهت بتوافه الامور ، والفكر منها يصارع القلب وهواه . والمثل القريب هو هذا الالماني الشديد البأس — هذا الداهية الذي قد يعتنق الاسلام من اجلها . فهو في الاقل شهم يحسن مجاملة النساء — يقبل يدها

ويجلسها الى يمينه على الديوان او في العربة . وهذا ما لا يحسنه العثماني ولا يرضى به

— يا للعجب ، ما تفعله بي هذه الامور التافهة ! وما المجاملة من العادات غير العقيمة . هي كالوسام على صدر الجندي — بهرجة فارغة — فخفخة باطلة !

اما اطوار المرأة ، فهي حقيقة روحية — حقيقة كالصدر الذي يعي اسرارها . حقيقة كالشفاه التي تفصح عنها . حقيقة كالزهيرات على حافة الطريق تبرعم في السحر وتذبل في المساء ، فتعيد الى الشمس شذاها ، والى الارض نضارتها . وهي تظمأ وتجوع كالصنوبر الشامخ كبراً وكالكرمة المتعرشة المخيمة مجداً . اجل ، ان اطوار المرأة ، وان كانت تافهة ، لحرية بالاعتبار . فهي حقاً جوهرية ، تستقي من ينبوع الحياة اسمى الالهام النفسي ، وان ولدته الوساوس ، وغذته الشواذات فلا تعجبن اذاً ما اكبر قلب جهان مجاملات ينكرها العقل عليها . فان شفتي رجل تلثمان يد هذه المرأة التي خلقت لتقبل يد الرجل ، ملكتا قلبها ، واهاجتا منها ما لا تهيجه اخلص قبلات الحبيب واحرها . وقد اتخذت من الحدث مثالاً يثبت ما يقوله

الفيلسوف نيتشه في صحة العكس للقياسات المألوفة والفضائل المتبعة . زد على ذلك انها كانت تشتهي من مظاهر السيادة ذلك الاجلال الذي حرمته امهات شعبها

عادت جهان تفكر بما كان يجول في رأسها ، وهي ترعى ما استيقظ في القلب ، وتتعلل به . انه لرجل كبير . ولكن نضارة وجهه تكذب سنه . وهو كبير الخلق ، بهي الطلعة ، ناهيك بالصيت والمنصب والسؤدد والمجد . ويل الهائمة المسكينة من وجنتيه الحمراوين الضاربتين الى السمرة ، ومن عينيه الشهلاوين البراقتين ومن اردیته الحربية الفاخرة ! فهي كلها تهزأ بسنه ، وبما اثقله به الزمان

ولكنها عادت الى اخلادها الاجتماعية ، ونزعاتها النفسية . الى غرضها الاسمى وهدفها الاعلى . فسألت نفسها عما اذا كان عملها يعد انتقاماً او تضحية . وبكلمة اخرى ، اليجب عليها ان تفادي بشرفها في سبيل الحرية التي تطمح اليها . وما هي ياترى ؟ هي ان يكون لها الحق والحرية ان تنتخب اباً لولدها ولو أدّى الامر الى هدم معاهد شعبها وقتل تقاليده المقدسة . فان امها بل امهات بلادها ، اللواتي ترائين لها وهن راسفات بالقيود ، قد طلبن اليها ان تقتص لهن بمثل هذا العمل . وقد رسخ في عقل

جهان انها هي المختارة — الرسول — هي سيف النقمة يشهره الله على طغيان الرجال

وقفت متيقنة مترددة . فقد يكسر سيف النقمة بضربة واحدة . لا بأس ، فان هناك كذلك سيف التضحية . وفي الاثنين ما يشحذ قصدها ، ويشد ساعدها فهي ابنة معقول كما انها ابنة خيال ، تنتقل من حال الى حال بسهولة غريبة . فاذا قبح عقلها الاوهام عادت اليه واذا نفرت من مكاره الحياة لجأت الى احلامها . وقد عادت الآن الى معقولها تقول : لا اقدم نفسي ضحية ولا اطلب الانتقام وانما انا اسعى لسعادتي ، في سبيل نفسي ، طوعاً لحريتي — حرية الانتخاب اذا احببت ان اكون اماً . — هي حقي . حريتي في انتخاب والد ولدي . هي حقي المقدس . ولا فرق فتى جاء او فتاة . فالفتاة تقتدي بي في تحرير المرأة التركية ، وتكمل عملي . والفتى بعون الله ينشأ بطلاً فيكون جندياً وطنياً وزعيماً نافعاً — يكون منقذاً لامتنا ، ومرمماً لدولتنا المتداعية . قد يستحيل تحقيق آمالي برجل من امتي . ثم صاحت قائلة : لله من الوحش الاشقر [1]

---

(١) ان نيتشه في كتابه « كذلك قال زرادشت » يسمي رجل المستقبل ، الرجل الاسمى ، بالوحش الاشقر

عندما نطقت بهذه الكلمات احست كانها في غابة وحدها ، فعرتها الرعشة ، وودت لو ان العبد سليم يعود

استلقت على الديوان وهي تحاول ان تقطع مجرى فكرها او تغيره . بل كانت تود في تلك الساعة ألا ترى شيئاً ، وان لا تشعر وان لا تفكر بشيء . ولكنها عجزت ، فجرّها الفكر هذه المرة الى ابيها . هي تحب اباها حباً صادقاً ، لا يفسده مبدأ نيتشه القائل بعكس القياسات والفضائل المألوفة . لذلك تكره ان تزيد ببلواه وتحب ان تعمل بشيء من ارادته . عليها اذن ان تضرب صفحاً عما يفعل او يقول وهو في غضب ، وألا تحرمه في شيخوخته ما تعوّده في الماضي ، فتكون رفيقة لقلبه ، ومرهماً لجروح نفسه . ولكنه يستحيل عليها ان تذهب واياه الى قونيه ، فتقصي نفسها في هذا الزمن العصيب في مجاهل الاناضول . يستحيل ذلك ! فهي لا تستطيع ان تضحي في سبيل حبها البنوي مثل هذه التضحية . ولكن

قرع العبد سليم الباب ، ودخل يحمل علبة صغيرة ، فقدمها الى جهان قائلا ، وهو يشير الى ظفر باهمه : هذا القدر فقط يذوب في قليل من الماء ، او في فنجان من القهوة . هل تفضلين القهوة خانم ؟

ـ لا يا سليم . افضل الماء

وظلت اسيرة هواجسها ، وهي في سريرها بين موجتين ، اليقظة والرقاد . وكان جفنها يثقل ، وقلبها مرح ، عندما انحدر اليها من عالم علوي ، ملك الليل وقد شع ضوء القمر على جناحيه ، فسمعها تناجي نفسها وتقول :

ولد من بروسياني ـ من هذا الالماني ـ اما تضحيةً واما انتقاماً

الفصل الثامن

كان الجنرال فون والنستين يظهر الاعجاب باصدقائه الاتراك ، فيأخذ في بعض عاداتهم ، حتى انه امسى في بعض اطواره تركياً . ومع ان مقامه يوجب عليه الرصانة والتحفظ ، فقد كان يتساهل ويداري في بعض الامور . قد لا تجيز القيادة الالمانية العامة مثل هذه الخطة ، ولكنها عززت منزلته في الباب العالي وفي يلدز . فكان تركياً في سياسته ، المانياً في عمله

ومما كان يعجب الترك به من اخلاق الجنرال هو حذقه العجيب في تدبير الامور وفقاً للساعة والحال . فكان في نظرهم من هذه الوجهة آية في التلون والتحول . فانه وان كان ذا

عزم ثابت ، لا يتزعزع في مقاصده ، وعنيداً لا يشفق ولا يلين ، فقد ادرك مذ أمّ العاصمة العثمانية ان القسوة في الشرق لا تنفع كثيراً ، ولا الشدة تفيد . وكيف لا وصاحب الصولة والاقتدار ، صاحب الجلالة نفسه ، يلجأ غالباً الى المراوغة والمداراة . فيؤثر اللين على الشدة . والحكيم من استعان على اموره بالاثنين . لذلك عوّل الجنرال فون والنستين على ان يسلك هذا المسلك ، وهو يعلل نفسه بملك اسيوي ، ويأمل ان يصح حلم السيادة المطلقة الذي كان يحلمه كل يوم . وقد طالما ردد في قلبه : من بروسيا الى بغداد — انه لملك واسع الارجاء ! فاذا امست هذه البلاد تحت حماية الدولة الالمانية يصبح الجنرال اذ ذاك ارفع مقاماً ، وابعد صولة ، من ملوك المانيا المقيدين . فهو في صفته نائب جلالة الامبراطور لدى السلطان ولي الامر في مقاطعة اكبر من المانيا . واذا كان نابوليون رغب يوماً في الاسلام فهو يتجاوزه اقداماً ، ويفوقه حكمة ، فيتزوج من امرأة مسلمة تركية !

وكان واثقاً بالفوز ، متأكداً ان جهان لا ترفض شرف اسمه ومحتده ، ومجد صيته ومقامه . فما كان يرى لها في الرفض سبباً واحداً من الاسباب ، او عذراً واحداً من الاعذار . وقد

فاتحها بالامر غير مرة ، فكانت تسكت تارة ، وطوراً تعرب عن بعض ما بقلبها . او انها تحوله عن الموضوع ، وتستزيده من الحديث في الشؤون العامة . فاستنتج الجنرال من هذه المداعبة انها مثل سائر النساء لا تجسر ان تبوح بما يكنه قلبها ، او انها لا تدرك كل ما فيه على انه كان متيقناً انها راضية ضمناً ، ولا بد ان تقبل الشرف الذي خصها به ، فيعلم اباها بالامر ، ويدعو شيخ الاسلام ليعقد عليهما وفقاً للشرائع الاسلامية . ولم يكن هذا التعطف بل هذا التساهل من الجنرال حباً بعروسه التركية فقط ، بل اكراماً لامتها كذلك. فان في عمله هذا ضرباً من السياسة والدهاء يقرب في مثل هذا الوقت الاتراك من الالمان ويوثق بينهما عرى الولاء والتعاون .

تجاذبت هذه التأملات عقله وقلبه ، ساعة كان قادماً لزيارة جهان . وعندما فطن لمصرع اخيها اسف اسفاً اكيداً ، وكان في نيته ان يستنكر امامها عمل الضابط الاعلى في ساحة القتال. الا ان هذا الامر لم يكن ذا شأن في نظره وما ظن ان سيحول دون امنيته ، فخاطب نفسه قائلاً :

سأجهر لها بقصدي ، وافصح عن شيء من خطتي في المستقبل وسارسل كاتم اسراري في اليوم التالي اطلب رضاء

ابيها . ان في هذا من الاكرام والتعطف ما قلما يستحقه عثماني مهما عظم شأنه

جاء هذه المرة في ثوبه المدني . وعندما ترجل من العربة ، التي لم يكن فيها سواه ، استقبله الخادم عند الباب ، وتقدمه الى البهو الكبير ، حيث ظل واقفاً يجيل نظره في اللوحات المعلقة على الجدران ، وقد نقشت عليها آيات من القرآن

لم يتعود الجنرال الانتظار في مقابلة احد بالاستانة . ولم يكن هناك من يجسر ان يستوقفه منتظراً دقيقة واحدة . بيد ان سلطان الحب فوق كل سلطان ، وما يغتفر لجهان لا يغتفر لغيرها . لذلك لم يتكدر او يتبرم ، بل بات يترقب قدومها مسروراً مستبشراً . وشد ما كانت دهشته ، بل تغيظه عندما فتح الباب . فبدل جهان الحسناء جاء والدها يقابله . لم يتوقع الجنرال مثل هذه المفاجأة ولم ينس ما كان من سوء سلوك الباشا في اليوم السابق . على انه ملك نفسه واعصابه ، وصافحه باشاً ثم سلم مجاملا.

وبعد ان جلس على الديوان تكلم بالافرنسية لان رضا باشا لا يحسن اللغة الالمانية :

ـ عسى ان تكون السيدة جهان بخير ، وان تكون

تقبلت الخبر المفجع بصبر وشجاعة

ـ اننا نحمد الله في كل حال

ـ انكم يا سعادة الباشا مثال الورع والحكمة . ولستم في حاجة الى تعزية المعزين ، او حكمة الحكماء . انتم في مصابكم الجندي الاكبر ، وفي وطنيتكم الزعيم المحترم . ولسكم في موت ابنكم في ساحة القتال التعزية القومية الكبرى فضلا عن انعام جلالة الامبراطور وان جاء متأخراً

ـ اشكركم . واشكر لكم هذه المجاملة . لقد صدقتم يا سعادة الجنرال في ما قلتم . الجندي لا يأسف على ابن له مات في ساحة القتال . هذا اذا كان قد مات في المعركة مستبسلا . فهو شهيد الوطن . ولا اسف ، وان مات مجهولاً . اما اذا مات شهيد واجبٍ هو اقدس عنده من الوطن والملة ـ اذا مات دفاعاً عن اخوانه الجنود ليصد عنهم وحشية قائدهم الاعلى بل خيانته ! . . .

وقف الباشا عندما دخل الخادم يحمل طبقاً عليه كاس من الشراب قدمه الى الجنرال . فتناوله ، وبعد ان شرب قليلا منه رفع يده الى طربوشه شاكراً . ثم قال :

ـ ما فهمت ما تلمحون اليه . فهلا افصحتم ؟

— وهل يلزم الافصاح ؟ هل اعيد على مسمعكم يا سعادة الجنرال ما انتم عالمون به ؟

— انكم تبالغون بما تفرضون

قال هذا بلهجة عنيفة وهو يربت ركبته بانامله

فاجابه رضا باشا بشبه لهجته :

— لنفرض المعقول بل المؤكد . وذلك انكم عالمون بحقيقة الفاجعة في ساحة القتال

— وهل اختلف ما نعلم عما علمتم ؟

— اقول لكم بصراحة ، يا سعادة الجنرال انكم تتجاهلون

— ارجوكم . . .

— او انكم تريدون ان تخفوا الحقيقة التي بلغت وزارة الحربية ومنع نشرها قانون المراقبة . ان الضابط الالماني الذي رمى ولدي بالرصاص هو نذل جبان

تقلصت شفتا الجنرال ، وانزوى ما بين عينيه . الا ان انقباضه لم يظهر في صوته اذ قال :

— انكم واهمون . واني اؤكد لكم ان لا صحة للاشاعة

— هي اذاعة رسمية ، لا اشاعة

— قلت لكم ان موت ولدكم هو حادث من الحوادث

الفجائية التي يؤسف لها

فصاح رضا باشا قائلا : حادث فجائي ؟ اتسمون امر القيادة حادثاً فجائياً . الامر للضابط ان يرمي بالرصاص كل جندي يتراجع ــ حادث فجائي ! هو الامر الذي احتج عليه ولدي يا سعادة الجنرال ، وعصاه . عصاه دفاعاً عن اخوانه الجنود فرماه الضابط الالماني بالرصاص

ظل الجنرال فون والنستين مدركاً مقامه ، مالكاً نفسه على ما جاش في صدره من الحنق والغيظ

ــ اذاً كجندي توجب على ابنك القصاص لتمرده وعصيانه

ــ قربتم ، والحمد لله من الحقيقة . قد اطلق على ولدي الرصاص لعصيانه الاوامر العسكرية ، ولم يمت مجاهداً جهاد الابطال ولا اظن ، يا سعادة الجنرال ، انه كنتم تجهلون ذلك عندما كتبتم الي تنبئوني بانعام جلالة الامبراطور على ولدي . كان الاجدر بكم ان تمتنعوا . كان يليق بكم ان تشفقوا في الاقل على شيخ مخلد الى السكينة ، فلا تجعلونه عرضة للهزء والسخرية

جاء الخادم بالقهوة فرفضها الجنرال . وكان قد تغير لون

وجهه فوقف يهم بالخروج وقال :

اعذروني ، فلا اباحثكم في هذه المسألة لانها حربية عسكرية وهي من خصائص أولياء الامر

ـ وليست من خصائصي ، انا والد القتيل ؟ انه لامر عجيب انه لامر فظيع

كان الجنرال واقفاً كالتمثال جامد الوجه قاتمه ، ويداه مشبوكتان وراء ظهره . وكان رضا باشا لا يزال جالساً فنهض في سورة من الغضب واقترب منه قائلا :

ـ واغرب من هذا وافظع ، يا حضرة الجنرال ، انكم تنعمون على ولدي بوسام الاستحقاق بعد ان علمتم الحقيقة . وتجيئون الآن لتقولوا لي ان ليس من شأني البحث والسؤال . بل جئتم تهنئوني بمصرع ولدي ! اهذا هو القصد من زيارتكم؟ يا للاسف !

نظر الجنرال فون والنستين الى رضا باشا نظرة حادة فيها احتقار يخالطه الرثاء . وراح يردد كلمته : ياللاسف ، ياللاسف حتى وصل الى الباب فاحنى رأسه مودعاً . اما رضا باشا فقد ظل واقفاً واجماً في وسط القاعة

الفصل التاسع

افاقت جهان صباح ذاك اليوم في حال من الكدر والغيظ ، ناقمة على نفسها وعلى الكون . وكانت افكارها من صبغة واحدة سوداء ، ومن صيغة واحدة مكسرة مشوشة . وقفت في الرواق تستنشق الهواء النقي ، فبدا لها ذلك المنظر قاتماً ، وكان في اليوم السابق مبهجة للعين والروح . وكانت الشمس شارقة ، وقد انعكست اشعتها على قبب المآذن ، وتلألأت على وجه القرن الذهبي وقواربه ، فبدت آية في الجمال . ولكن حزن جهان على اخيها حال دون البصر فيها والبصيرة . وقد تراءى لها اخوها في الحلم الليلة البارحة وهو يقدم سيفه لها . وجهان امرأة تعتقد بصحة الاحلام ، وعلى الاخص الاحلام

المشؤومة . فقد طالما تحققت صحتها ، فزاد ذلك الآن في اضطرابها

ولكنها مع ذلك لا تدع يومها يذهب سدى . ولا تحب ان تضيعه في المناقشات العقيمة ، كما اضاعت ايامها الماضية . لا ولن تقضيه في الحزن والكآبة . فقد لامت نفسها لانها سمحت لشؤونها الخاصة ان تشغلها عن العمل الكبير العمومي الذي تقدسه . فان سار شكري بك الى ميدان الحرب او لم يسر ، وان رضي الجنرال فون والنستين عنها وعن ابيها او لم يرض ، وان كان مصرع اخيها انتقاماً او تضحية — وكثيراً ما كانت تردد هذه الكلمات في احلامها المزعجة — فهي الآن لا تبالي . فيجب عليها ان تستجمع قواها لتقوم بما يتطلب منها من الاعمال

امرت باحضار عربتها الخاصة ، وارسلت الجارية الى الحديقة لتجيئها بسلة من الازهار . ثم ارتدت ثوباً اسود باريسي الزي ، ولبست قبعة تلائمه من المخمل ، وقد تدلى من اطرافها برقع خفيف يحجب الوجه ولا يخفيه . وما كان يظن من رآها خارجة من بيتها انها على شيء من الكدر والهم ، او ان بها شيئاً من التردد والاضطراب

وكان ابوها مسروراً بما فعلت ، خصوصاً وانها في النقاب والمركبة المقفلة ومرافقة العبد سليم لها ، كانت مذعنة للارادة الابوية . ما كانت جهان تفتقر الى تلك الخلة التي تمتاز بها المرأة التركية ، وان كانت دونها ادباً وتهذيباً ، فهي على تمردها تحسن المداراة . وقد كانت تجيد كذلك التوفيق بين التافه والمهم من الامور . نقول هذا ونتحاشى الاطلاق . فان في نفسها البواسق من العقائد ، كما فيها الرواسخ من الاميال والآمال . وانها في عقيدتها الكبرى ، اي حرية المرأة واصلاح الحريم ، وتجديد حياة الامة بالعلم والتهذيب ، انها كالطود لا يزعزعها حال او زمان او سلطان . ولا تعرف فيها المداراة او التساهل

ولم تكن هذه الخلة العقلية ، التي اقتبستها جهان من الغرب ، مخالفة لروح الجنرال فون والنستين الغربية الطبيعية . الا انه سلك مسلكاً شرقياً الى غرضه ، كما انها سلكت مسلكاً غربياً اليه ، فاختلفا واسطة واتفقا غاية . وما ادركا انهما يضحيان في سبيل ما طمحا اليه ما فطر كل منهما عليه من السجايا النفسية الاهلية . تخلق كل منهما بخلق الآخر ، رغبة بتحقيق امل كبير ، لا حباً برقي اجتماعي او ادبي . اما غاية

جهان القصوى ، واسبابها غربية ، انما هي في تحقيق حلم عقلي . وغاية الجنرال ، واسبابها شرقية ، انما هي في تحقيق حلم سياسي . وكلا الحلمين جميل اذا صحت الاحلام . بيد ان مسألة التخلق هذه ، او الاجتهاد في التخلق ، انما هي مسألة دقيقة ، يلذ لطالب العلم درس اسبابها ونتائجها . فهل ياترى يفوز امرؤ غربي وامرأة شرقية بامنيتهما اذا لجأا الى المداهنة والتمليق فيخادع الواحد منهما الاخر ويخادعان كذلك انفسهما . أينتظر ممن يعمل لنفسه فقط ان يبلغ شأماً من مآمن الروح العلوية ؟ ايمكنهما ان يوفقا بين المقتبس والموروث من سجاياهما الغربية والشرقية فينسجمان ويظفران بما ينشدانه من السعادة والحبور ومن السيادة والمجد ؟ ان في هذه الرواية مثالا لهذه القضية الفريدة

كانت جهان احب المؤاسيات للجرحى في المستشفى ، واقربهن من قلوبهم ، المانيات كن او عثمانيات ، مسيحيات او مسلمات . بل كانت السلطة التي يجلون . والربة التي يعبدون . وكان اليوم الذي لا يرون فيه وجهها يوم وحشة كما قال احدهم ، بل يوم شؤم وكآبة . وان اشرقت الشمس في كبد السماء فالنهار مظلم بلاها . هي النور لعيونهم ، هي البلسم الشافي

لجروحهم ، هي معبودتهم بعد الله والنبي

ـ لقد عادت اليّ صحتي ، يا خانم

قال هذا جندي اسمر البشرة ، وهو يقبل الوردة التي قدمتها له ، ويضغط على اليد الكريمة التي جادت عليه بعلبة من السجاير . ثم قال : وساعود غداً الى ساحة الحرب . وقد لا اراك مرة ثانية في هذا المستشفى . ولكن حسبي هذه الوردة فانها تحاكي جمالك . سادافع عن الوطن باسمك ، واذا قدر لي ان اعود الى المستشفى فاني ، يا مولاتي اكون سعيداً بمشاهدتك قبل ان اموت

رفعت جهان قناعها وقبلت وجنتيه وداعاً

ثم مشت الى ضابط كان جالساً على كرسي ، فقدمت له وردة ، فشكرها وقال :

ـ قرأت مقالتك في تصوير افكار ، تلك المقالة الرائعة المبشرة بالحق . اني على رأيك ، خانم ، فينبغي ان ينشأ الجيل الجديد في مهد الحب المقدس ، البعيد من العبودية . واقسم بالله ، يا سيدتي ، انني موحّد لا اشرك في زواجي . فان في الاكتفاء كما تقولين الطريق لنهوضنا واصلاحنا

كانت الرئيسة الالمانية ترافق جهان في المستشفى ، وتسأل

المساعدة التي تحسن الالمانية ، ان تترجم لها ما يقوله الجنود . فسرت بما علمت ، وهنأت جهان التي كانت اذ ذاك تعين في الجلوس كهلاً معصب الرأس ، فلما استوى في سريره ظل ماسكاً بيدها ، وقال :

ـ انت شقيقة مجيد بك . قائدنا الشريف الباسل . وقد شهدت مصرعه ، تغمده الله برحمته ورضوانه ، وجعل هذه المصيبة خاتمة احزانك . وا أسفاه ، لقد مات من اجلنا ، مات مدافعاً عنا ، مقاوماً لقسوة الالمان ، لوحشيتهم . كلاب ، كلاب !

كان يرتجف ، وهو يتكلم ، فسارعت الرئيسة التي فهمت بعض ما قاله ، لاعانة جهان ، فاسندت بوسادة رأس الجريح ، وهي تردد بالالمانية كلمات لم يفهمها . الا ان ابتسامها ولطف صوتها ادخلا على قلبه السرور

وكانت جهان تمسح آنئذ دمعها وتقول لنفسها : ما اشرفها وما ارق قلبها ، أتستطيع يا ترى امرأة تركية ان تؤانس امرؤاً وتؤاسيه ، وقد شتم امامها آباءها ؟ ان في الروح الالمانية لعظمة وانفة ! ولكنها توقفت فوراً في شعورها ، طوعاً لصوت اخر فيها . ـ ولكن هذه العظمة فيهم مصنوعة ومكتسبة . هم

يتعلمونها في المدرسة وفي البيت . وهي من قواعد نظامهم العسكري ، انما امتلاكهم لشعورهم يستحق الاعجاب

لم يكن عمل جهان لينحصر في توزيع السجاير والازهار ، وحلو الكلام والابتسامات . فذهبت الى غرفة اخرى لتلبس ثوب التمريض — ثوب العمل الشاق الذي كانت تحسنه وتسر به. فقد انشأت من اخواتها ، بنات عائلات الاستانة ، من مسلمات ومسيحيات ، فرقة درست واياهن مهنة التمريض ، ومارسته قبل ان اجيز لها حمل الرباط وادوات الجراحة

وعندما خرجت من غرفة الجراحة دنا منها طبيب الماني وقال :

— عسى ان يكون الخبر صحيحاً . الجنرال احد رجالنا العظام هو بطل همام

فشاءت جهان ان يكون جوابها ابتسامةً مبهمة ، فقال الطبيب وما احسن التعبير !

— نعم هو بطل مغوار . وانتِ اعظم فتوحاته . اهنئك ، اهنئك

— اشكرك ، وان كنت مبالغاً او مجازفاً بما قلت

واشاحت بوجهها عنه توبيخاً . لانها لم تكن صريحة في

حديثها كما هي في قلبها . بل كانت تجامل خصوصاً الاجانب ، وتعجب خصوصاً بالالمان ، الا ان خشونة الطبيب هذا آلمتها ، فحاولت ان تنسى في استعدادها للعمل ، فسألت طبيباً من ابناء جنسها عما هناك فقال :

— امامنا عملية جراحية لا امل بها . وقد يموت المسكين بين ايدينا قلت خير له ان يعالج بالمخدرات والمقويات من ان يعجل اجله بالمباضع . ولكن هذا الالماني يصر على العملية ولا يبالي . ان ادعاء هؤلاء الالمان وغطرستهم لما يفوق التصور والاحتمال .. وما هذا الذي سمعته امس ؟ قولي ان الخبر كاذب فاهنئك . انا لا اصدق ان ابنة رضا باشا ستضحى للسياسة الالمانية . سامح الله اباك

— ولكن ابي من رأيك

— وانت ؟

— عفواً يا دكتور . ما جئت المستشفى لاتحدث عن اموري الشخصية . وقالت لنفسها : انه اثقل من زميله الالماني . انما سرت وتفاءلت بما سمعت

وعندما انهت عملها ذاك اليوم ، وكانت في غرفتها تتأهب للخروج ، جاءتها رئيسة الممرضات والوجه منها يشع سروراً

ـ عزيزتي جهان . انه لخير ماتعملين. فقد اقتبستِ عاداتنا، وتخلقت باخلاقنا ، وتشربت آدابنا ، والان ستدخلين في ديننا . ان لك السعادتين ، سعادة الدنيا ، وسعادة الاخرة . اني متيقنة انك تعتنقين مذهب الجنرال اذا اقترنت به . فاسمحي لي ان اهنئك يا عزيزتي جهان

ـ وما قولك اذا اعتنق الجنرال مذهبي ؟

قالت هذا وهي تبتسم ابتسامة تهكم واستعجاب

فغصت الرئيسة واجابت :

ـ هذا مستحيل

ـ لا مستحيل في الحب والسياسة .

عادت جهان الى بيتها مستبشرة ومكدرة معاً . فما الذي دعا الجنرال فون والنستين ان يشيع الخبر ، ومن عادته التكتم في اموره ؟ لا شك انه هو مصدر الاشاعات ! وقد كتبت اليه عند وصولها الى البيت تظهر استياءها من ذلك

اما جوابها على اقتراح رئيسة الممرضات انها ستعتنق الدين المسيحي ، فقد كان صريحاً جلياً في مقال كتبته ونشرته في جريدة من جرائد الاستانة ، موضوعه : الحرية والاسلام

الفصل العاشر

كثيراً ما حذر وزير الداخلية الجنرال فون والنستين من رضا باشا ، عدو المحالفة العثمانية الالمانية ، وصديق الرجعيين بباريس ، حتى ان جواسيس الجنرال جاءوه بما يثبت ظنون الوزير وقد قال احد كبار الاتحاديين ، من خصوم رضا باشا ، انه يفاوض سراً اصدقاءه بباريس . بل اتهمه بالخيانة للوطن ، وطلب محاكمته

على ان الجنرال فون والنستين كان متردداً ، فما شاء ان يسلك مسلك الشدة في الامر ، ولا شاء ان يظل على صلاته الولائية بالباشا . وهذا ما حمله بعد زيارته الاخيرة ، على تغيير خطته . فقد تدخّل بشؤون عسكرية لا تعنيه ، واتخذ من

عصيان الجنود عذراً لتبرئة ابنه ، واهان قائداً المانياً اهانة لا تغتفر . وهو الجندي الذي لا يجهل ان النظام في الحرب هو فوق كل شيء

وهناك امر آخر يزيد بما كان من ذنبه . فقد حكم المجلس العسكري ببراءة الضابط الالماني الذي رمى الجنود العصاة بالرصاص ، وقال ان ابن رضا باشا استحق الاعدام . وقد استحق كذلك وسام الاستحقاق اي مدالية « صليب الحديد » والفضل في ذلك للجنرال فون والنستين . الامر الذي جهله رضا باشا

وما شاء الجنرال ان يمنن والد جهان ، ولا اطلعه على الخبر بالتفصيل . فقد ابلى مجيد بك بلاءً حسناً في ساحة القتال ، قبل الحدث المفجع ببضعة اسابيع ، فذكر الجنرال اسمه في لائحة المستبسلين المستحقين وسام الاستحقاق . اما عصيانه بعد ذلك فامره اصبح معلوماً . قد عومل اذن على تلك الطريقة الرومانية القديمة ، اي انه أكرم لبسالته وأعدم لعصيانه . وقد تعجب الجنرال ان الباشا ما ادرك ذلك . وقد كان بوده ان يلفت نظره الى الامر ، وينبهه لما كان من فعله لولا تلك المكابرة منه فقد ابى عليه شممه ان يتنازل للتوضيح . ولكنه لم يحل دون رغبته بالانتقام . اللهم اذا ظل متوارياً ، واستغل موقف

الخصوم في طلب محاكمته . اذن سيغض الطرف عن مساعيهم ، ويظل موالياً لرضا باشا ليتمكن في النهاية من التوسط للعفو عنه . سيدفع به الى التهلكة ، ثم يخلصه ويقدم لجهان هدية الخطبة بل هدية العرس . هذي هي الخطة التي اتخذها حباً بجهان

بينما كان يفكر بهذا دخل الياور يقول :

ـ شكري بك يطلب مقابلة سعادتكم

ـ أفي هذه الساعة ؟

ـ قال انه قادم لامر خطير

تململ الجنرال ثم قال :

ـ دعه يدخل

وقف شكري بك في الباب ، وقرع مهمازا جزمته الواحد بالآخر وسلم ، ثم دنا من الجنرال الذي ظل جالساً على الديوان

ـ ماذا تريد ؟

قدم شكري بك الى الجنرال الامر الذي تلقاه من المجلس العسكري

ـ وما هذا ؟ لعلك نسيت اني لا اقرأ التركية ؟

استعاده شكري بك وقرأه

— ولماذا جئت به اليّ ؟

— لاني واثق بكرم اخلاقكم

— لعلك مبالغ بما انت واثق به

— الجأ الى شرفكم وعدلكم

— ان شأنك الان مع اولي الامر

— انتم في مقدمتهم ايها الجنرال

— لا اتدخل في جزئيات الامور

— ليس امري من الجزئيات ، ايها الجنرال . فهو يهمكم

— أو انت اعلم مني بشؤوني ؟

ونهض الجنرال عن الديوان ومشى الى الطاولة في وسط القاعة

— أجل ، ببعض شؤون سعادتكم

— انها لجسارة منك

— سامحوني . ولا حاجة الى قرع الجرس . اني ذاهب اذا شئتم . لكني اظن ان حديثي يهمكم . فلدي ادلة على مكيدة لاغتيالكم

اشار الجنرال الى الياور الواقف في الباب اشارة سرية ثم عاد الى الديوان وامر لشكري بك بكرسي بعيداً منه قليلاً

— قد شاع في المدينة خبر الفاجعة . وان فرقة من جنودنا حصدتها قنابل مدافعنا ، وان ضابطاً من ابسل ضباطنا خرّ صريعاً عملاً بامر صدر من المرجع الاعلى — لا من وزارة الحربية ولا من القيادة العليا . بل منكم ايها الجنرال . هذا هو الشائع في المدينة ، وهذا ما ستنشره احدى الجرائد . وقد اطلعني محررها على مقالة قبل قدومي اليكم .

— كمّل

— والشائع كذلك ان الجنرال انعم بوسام الاستحقاق على ضابط عثماني لعصيانه امر ضابطه الاعلى الالماني . فأشكل الامر على الصحافيين ، فجاء احدهم الى رضا باشا مستفسراً فرفض ان يقابله . والناس يقولون ان الجنرال انعم بالصليب الحديدي على الاخ ، لانه يهوى الاخت . وقد اشار المحرر الى هذه المسألة في المقالة التي ذكرت

وانصت شكري بك متربصاً ، فسأله الجنرال ثانية ان يتابع حديثه .

— وهنا يجيء دوري ، تجيء مسألتي التي هي احدى صغائر الامور . وسيقال فيها ان ذنب شكري بك هو انه يحب جهان . لهذا صدر الامر بان يذهب الى ساحة الحرب .

اهذه هي القدوة الحسنة التي يود احلافنا ان نقتدي بها ؟ اهذا هو المثل الاعلى الذي يقدمه لنا اسيادنا الالمان ؟

ادرك الجنرال ، مما بدا في وجه شكري بك وحديثه ، انه هو الذي يهدد حياته . ولكنه ظل مصغياً ، هادىء البال

ـ واين الادلة على المكيدة ؟ هات البرهان

ـ ان المحرر الذي قصصت قصته قد اشترك في المؤامرة مع عضو من جمعية الاتحاد والترقي . وهناك ثالث ، فدائي هو آلة التنفيذ . وما المقالة التي ذكرت سوى حيلة يموهان بها على القراء لتحويل الانظار عمن سيرتكب الجريمة

ـ انه لخبر مفيد. وهل تتفضل باسماء المتآمرين عليّ ؟

ـ اسماءهم رهن امرك ، ولكن هناك قضيتي . انا لا اسألكم صدقة ، بل اطلب ان تعاملوني بالشرف والعدل . اطلب تأجيل الامر بضعة ايام فقط . واذا كنت احاكم عرفياً لطلبي هذا ـ اذا كنت أطرد او اوبخ .....

ـ قلت لك ان لا شأن لي بقضيتك على الاطلاق . ولماذا لا تلجأ الى رئيس اركان الحرب ؟

ـ ان رئيس اركان الحرب ارسلني اليكم

كان الجنرال يتمشى في الغرفة والياور واقفاً في الباب ،

فاومأ اليه فانصرف . وما لبث ان عاد ومعه شرطيان . اثناء ذلك قال الجنرال لشكري بك :

ـ اظنك تطلب توسطي ثمناً لسرك

ـ عفواً . ولكني .....

ـ ولكنك تشترط شرطاً يتممه رجال الامن العام

قال ذلك وهو يشير الى من دخلوا ، وهم رجل في ثوب مدني ، وشرطيان ، فالقوا القبض على شكري بك . ولكنه تفلت منهم وشهر مسدسه ، وقبل ان اوثقوه ، اطلقه على الجنرال طلقةً شاردة . وقد القي القبض كذلك بعد ساعتين ، اي عند منتصف الليل ، على رضا باشا في منزله وحجزت اوراقه كلها

الفصل الحادي عشر

ذهبت جهان باكراً صباح اليوم التالي لتقابل وزير الحربية في منزله ، وهناك ادخلها الحاجب الى السلاملك ، حيث جاءها بعد قليل ، كاتب السر يقول ان معالي الوزير يأسف انه لا يستطيع ان يقابلها . ولكنه ينصح لها ان تعتزل السياسة وتحصر اعمالها بالمستشفى

ـ اشكرك واشكره . ولكني اريد ان اعرف السبب الذي من اجله اعتقل والدي

ـ يقال انه خائن للوطن

ـ ابي خائن ؟ مستحيل . يجب ان ارى الوزير

ـ هذا مستحيل الان

— ومتى يمكن ان اراه ؟ ارجوك ان تسأله

احنى الرجل رأسه وخرج ، ثم عاد يقول ان لا دخل للوزير في قضية والدك .

عادت جهان الى عربتها وامرت الحوذي ان يسير بها الى الباب العالي . ولكن وزير الداخلية لم يرسل حتى كاتب سره لمقابلتها . فقد قال لها الحاجب ان معالي الوزير في شغل شاغل ، لا يمكنه مقابلة احد .

عادت ادراجها تخترق حشداً في الزواق من طلاب الوظائف والسياسيين ، والسماسرة والصحافيين ، والتراجمة والمسترحمين ، فعرفها احد مخبري الجرائد ودنا منها يسالها الخبر ، فما اجابت ولا توقفت . وتقدم اليها رجل آخر يلبس جبة وعمامة وقال لها ، حباً بخيرها وحفظاً لكرامتها ، ان تسدل الستار على نافذة عربتها فلا يراها الناس . فشكرته وكظمت غيظها .

وكان عند العربة عدد من الشبان ، طلاب ، يلبسون الاثواب الفرنجية والعمائم البيضاء ، فهتفوا باسمها وزادوا بيأسها .

وما الفائدة من الشهرة والمجد ، وهي في اشد محن الحياة ، لا تستطيع ان تحرك ساكناً . تستوقف في ابواب الوزارات

كانها من طلاب الوظائف ، ولا يقابلها وزير ولا يسمع لها مدير. وقد طالما رجوا عطفها وخشوا نفثات يراعها . وقد طالما رحبوا بها وتاقوا الى مناصرتها. فما الذي ادى الى هذا الانقلاب ؟ ايمكن ان يكون ابوها خائناً ؟ وهل تُعد معارضته للسياسة الالمانية خيانة ؟ واذا كان قد اساء الى الجنرال فون والنستين ، فهل تحسب الاساءة خيانة للوطن ؟

استمرت تحدث نفسها وهي مستسلمة لسذاجة في القلب قلما اصاخت ، في الشدة ، للعقل منها . لا يمكن ان يكون الجنرال من الوشاة ولا يمكن ان يكون معادياً لها . ولكن موقفه مبهم . فلماذا لم يأتِ لمقابلتها ؟ لماذا لم يكتب اليها او يخبرها بالتلفون عما جرى ؟ فاذا كان ينتظر ان تزوره هي اولاً ، فهو على خطأ

عندما عادت جهان الى منزلها ، كتبت الى جلالة السلطان كتاباً تلتمس به المثول بين يديه . فجاءها في اليوم التالي جواباً من رئيس الديوان السلطاني وفيه موعد ، مقرون بنصيحة خاصة منه بان تتم القصر في اللباس التركي محجبة . فعملت بنصيحة رئيس الديوان طمعاً بتعطف جلالة السلطان ، فتستغني عن استرحام الجنرال فون والنستين .

ولكن زيارتها لم تحقق ويا للاسف الامل المنشود . فقد كان السلطان كريماً في عطفه ، متورعاً في اسفه وعجزه . انه يرغب في مساعدة ابنة صديقه المحبوب رضا باشا . ولكن كلمة الخليفة امست كلمة من الكلمات ، وامره اليوم لا يطاع

ـ هو المقدر ، يا ابنتي ، فمكني ثقتك بالله . لا حول ولا قوة الا بالله

خرجت جهان من يلدز وهي في اضطراب نفسي وهياج عصبي ، كان قلبها ذاك اليوم قد قُدّ من قلب العاصمة . فقد كانت استمبول تعج وتهج باسم الاسلام والوطن وتنذر بالاضطرابات والثورة فزاد ذلك جهان تعلقاً بدينها وامتها . وكانت كتبت مقالها الثوروي ، لو لم تكن الحكومة قد عطلت الجريدة لما نشرته عن فاجعة غاليبولي . وسجنت كذلك احد الصحافيين لانتقاده الطاغية الالماني

وكانت الشرطة تمنع الاجتماعات في الاسواق ، عملاً باوامر الحكومة ، بل عملا بارادة ذلك الذي كانت ارادته فوق كل امر على ان في المدينة اماكن لا يستطيع جواسيس الجنرال او رجال الامن العام ان يدخلوهـا . تلك هي الجوامع والمساجد ، وقد هرع اليها الناس للصلات والمؤامرات . وفي

مقـدمة هؤلاء المتدينون المتعصبون الذين لا تقوى عليهم الحكومة ، اجنبية كانت او وطنية

وقد عاد العبد سليم ذات يوم من صلاته في احد المساجد ، فاخبر جهان بما سمعه هناك :

— كانوا يلعنون الكفار ، خانم ، ويستغيثون بالله عليهم . وقد سمعت احدهم يذكر اسمك ويقول : زواجه بها عار علينا وعلى الملة . وقال آخر اذا تم ذلك ، لا سمح الله ، سيذبح الاثنان ، والله ، ذبح الخنازير . هذا ما سمعته ، خانم . اعوذ بالله . اعوذ بالله

اطرقت جهان ، وما سكن ما جاش في صدرها . — هل هذه هي روح الاسلام ، دينها ؟ هل هذا هو الشعب الذي تناديه باسم الحرية والوطن ؟ هل هذا هو العدل الذي ترجوه من الامة ومن الحكومة ؟

ظلت ، وهي على هذه الحال تنتظر يومين ، بعد ان أُمت يلدز ، لترى ما يكون من الجنرال فون والنستين . افلا يزورها ؟ افلا يكتب اليها ؟ افلا يفكر باستطلاع امرها ؟ سكت الطاغية ، فعولت على استجوابه ، ففادت بكرامتها ، وذهبت اليه

الفصل الثاني عشر

جاءت جهان تقابل الجنرال فون والنستين ، فخف الى باب البهو مرحباً بها . وقبَّل يدها باشاً مسروراً . ثم تقدمها الى الديوان ، واجلسها الى يمينه

ــ وجئتِ اخيراً تزينني

بهذه الكلمات ، وبصوت فيه شذا التجمل ، افتتح الجنرال الحديث

ــ نعم . ولا اعلم ما الداعي لزيارتي . الا ان يكون ...

فقاطعها قائلا :

ــ واجب الصداقة ؟ كنت انتظر ذلك منك قبل اليوم . فقد جاء ذلك الاحمق شكري بك يهددني بالقتل ، وقد عطل

اثاث البيت كما ترين — انظري هناك — وما كلفت نفسك السؤال عني ، وما كتبت كلمة ، ولا لجأت الى التلفون مستطمنة . ما ظننت قط ان سيدة تركية تكون على مثل هذا الجفاء . اني ذو حق في عتابك

فاجابت جهان باسلوبه ونغمته :

اراك تسابقني الى الشكوى التي ارجو ان تكون مخلصاً بها . ومهما يكن من جفائي فانت شريك به ، فقد كان في امكانك ان تحول ، من اجلي على الاقل ، دون اعتقال والدي . وما فعلت . وقد كان في استطاعتك ان تعفو ، من اجلي في الاقل ، عن شكري بك ، وتبر بوعدك لي فتؤجل تنفيذ الامر الصادر اليه . وما فعلت

فاجاب الجنرال بلهجة يمازجها السأم :

— ما جئت اذن لتهنئتي بنجاتي من رصاصة المغتال

— لم يكن شكري بك مالكاً رشده . وانت المسؤول عما استولى عليه من اليأس

— انا ؟ ان الحقيقة بعكس ما تتهميني به . فقد باح لي ، وهو يهذو ، انك انت سبب بؤسه ، وقد قال انك وعدته بالزواج واخلفت بوعدك ، إني اعلم اكثر من ذلك . فقد شئت

ان تقبليه ذات ليلة فابى ، فطردته من منزلك . فراح يلعن المرأة العصرية ، وحرمة الحريم . انت التي سلحت هذا الابله اذن ، وانا الذي كدت ان اكون فريسته . فقد نفر منك وهاج علي

فقالت جهان وقد رفعت بصرها اليه مسترحمة :

ـ ولكنك شهم كريم الاخلاق ، فاعف عنه . اؤكد لك اني لا افكر في التزوج به ، ولا استطيع ذلك اليوم ولا غداً . اما هو فقد اساء فهمي . ولا اظنه يستطيع ان يحافظ على مطاليبي في الزواج . كلّا ، لا هو ولا سواه من ابناء بلادي في هذا الجيل يستطيع ذلك . اني متيقنة من قولي . فسامح شكري بك . اعف عنه . انقذه

ـ ما خالفت لك امراً قبل اليوم

ولا اظنك ترد طلبي الآن

ـ لست انا خصم شكري بك . فما اساء الرجل الي خاصة ، بل الى المصلحة الالمانية التي أقمت اميناً على جزء صغير منها . وكلمتي في هذا الشأن لا تتجاوز حدود وظيفتي .

ـ ان كلمتك في الاستانة شرع يطاع

ـ نحن اليوم في حرب ، ايتها الحسناء ، ايتها العزيزة جهان ، واعداؤنا لا يرحمون ولا يشفقون

— انتم الظافرون — والرحمة من شيم الظافر

— وبعد ان اطرقت قليلا ، وهي تشعر انها قد قامت بواجبها نحو شكري بك ، وان الجنرال سيلبّي طلبها ويعفو عنه ، — عادت تسأل عن والدها

— ووالدي ، لماذا اعتقل ، ما ذنبه ؟

— والدك ، أو تسألين الان عن ولدك ؟

قال هذا وفي صوته نبرة تهكم ، كأنه متعجب لإبطائها في السؤال عنه . ثم عاد الى الكلام فقال :

— ان ذنبه افظع من ذنب ابن عمك . فقد بلغني ان والدك خان الوطن ، وخان الدول الوسطى

فصاحت جهان قائلة :

— خيانة ! هذا مستحيل

— انه يراسل الامير صباح الدين ولطيف باشا في باريس . وهما من الد اعداء الحكومة الحاضرة ومن اصدقاء الحلفاء . وقد وجد بين اوراقه كتاب يقول ان هناك محاولة لدك الحكومة وان والدك متيقن ان الدولة العثمانية تفاوض اذ ذاك بالصلح . وقدوجدوا بين اوراقه المحجوزة غير ذلك مما يثبت الخيانة

حجبت جهان وجهها بيديها ، وهي تجهش وتقول :

ـ وما العمل ؟

ـ سيحاكم ابوك

ـ الا تستطيع ان تساعده من اجلي . ارجوك ، كلمة منك ...

خنق البكاء صوتها واغرورقت عيناها بالدموع

ـ لو انك جئتِ قبل الان ...

ـ اخطأت ، سامحني

ـ خلتِ انك تستغنين عني ...

ـ لا ترد بألمي وغمي ، عاملني بكرم اخلاقك

ـ ولماذا لم تجيئين قبل الان ؟

ـ لدالة لي عليك ، فقد كنت آمل ان تكون انت السابق ، او في الاقل ترسل فتستدعيني

ـ وعندما خاب املك بي ، رحت تلجأين الى غيري

سكتت جهان

الم تسترحمي غيري ؟

رفعت رأسها وصاحت قائلة :

ـ لا ما استرحمت احداً

فاخذ الجنرال يدها يربتها وقال :

اسمحي لي ان اخبرك اني عالم بما كان . فقد ذهبتِ اولا الى وزير الخارجية في منزله ، فقابلك كاتب سره وقال ان الوزير لا يتدخل في قضية والدك . وقد نصح لك ان تبتعدي عن السياسة وتقتصري على عملك في المستشفى . ثم ذهبت الى الباب العالي تسترحمين وزير الداخلية فلم تتمكني من الوصول اليه . حدثك احد الناس في الرواق وحذرك من السفور واجتمع حول عربتك بعض الشبان امام الباب العالي ، فبددهم البوليس . وفي اليوم التالي ذهبت الى يلدز مؤزرة ، فرثا جلالة السلطان لحالك وتاسف انه لا يستطيع ان يزيل كربتك . الا ترين ايتها الحسناء ، ايتها العزيزة اني عالم بكل ما تعملين ؟

راع جهان هذا العلم منه ، كان له الف اذن والف عين ، كأنه رب من ارباب الاساطير . صغرت امامه نفسها واحست انها اسيرة بين يديه ، بل اسيرة تلك السلطة الالمانية المطلقة العالمة كل شيء

— ولكني اعترفت بخطأي

— ليس لمثلك ان يخطىء في ما هو من آداب السلوك على الاقل ، فقد اهملتِ الاعتذار وهو حق عليك

ولماذا الاعتذار ؟

— الم اعلمكِ كتابة اني سأزورك

— كنتُ ذهبت الى المستشفى لاقوم بواجبي . وقد سألت ابي ان يعتذر عني اليك

— قد سلك ابوك سلوكاً مشيناً لا يليق بكبير مثله

— أوَ هذا ذنبه ؟ أوَ هذا ما تعده خيانة للوطن؟

قالت هذا واستوت واقفة سامدة الرأس

فوقف الجنرال كذلك وقد بدا في صوته وعينيه شيء من الغضب

— اخطأتِ . انا لست ممن يلجأون الى الانتقام

— بل اظنني اصبت . واني اقول لك ان خطتك هذه لا تجديك نفعاً . ان ما تبتغيه مني لا يُحقَق باضطهادك والدي

قالت هذا وهي تدنو منه مدفوعة بعامل الغيظ والتحدي . فاخذ الجنرال يدها بكلتا يديه دون ان يكترث لما بدا من غيظها وقال :

— ها قد اقتربتِ من الموضوع . وانه لما يسرني . عودي الى مجلسك وسكني خاطرك واسمعي لي . اني اسألكِ مرة ثانية ان تقبليني زوجاً لك

ـ ذلك مستحيل

ـ مستحيل ؟ ولماذا ؟

ـ لا اقترن بمسيحي

ـ لا يليق بكِ التعصب

ـ هو اعتقادي ولا تعصب به . واني متيقنة ان الامرأة التركية لا تكون سعيدة اذا اقترنت باوروبي

ـ واما انتِ ؟

ـ اني من هذا القبيل امرأة تركية

قالت هذا وهي تبتسم ابتسامة استسلام يشوبه التهكم

ولكنكِ تفوقين باقي النساء في تهذيبك . ولك من تعاليمك ما يبرر خروجك عن المألوف ، بل يوجبه عليك

ـ انكَ تجاملني

ـ اني اقول الحقيقة . عودي الى معقولك ايتها العزيزة ، عودي الى تعاليمك . انت تعلمين مقدار حبي لك واجلالي اياك . وتعلمين كذلك اني معجب بامتك ، ومحترم للكثير من تقاليدها . ولهذا احب ان اعيش بين الاتراك وان اكون نصيرهم ، بل اخوهم في الاسلام . اني مسلم ، واغار مثلك على مصالح الوطن والملة

هذا جميل منكَ . ولكني ارجوك الا تكلمني بالزواج

ــ ولماذا ؟ ألانك لا تعتقدين به ؟

قال لها ذلك وهو ينهض عن الديوان متسائلاً

ــ لقد جئتكَ بشأن والدي وابن عمي ، وما جئت اباحثك في موضوع الزواج

ــ قضية ابن عمك ليست بيدي . اما قضية ابيك ، ففيها نظر . ولربما تجهلين انه لولاي لوقع في قبضة اعدائه قبل اليوم . ان قضيته سياسية ، وقد نصحت للاتحاديين التروي ، وما استحسنت ما كان من امرهم وامره

ــ وهلا امرتَ الان بالعدول عما لا تستحسنه

ــ ان امنيتكِ ايتها العزيزة جهان هي امنيتي . وان في امكان كل منا ان يجعل الآخر سعيداً . فلماذا التردد ؟

تقولين انك لا تقترنين باحد من ابناء امتك ، وترفضين الان قلباً اقدمه لك

ــ ارفضه آسفة ، حزينة

ــ انك تصانعين

ــ اني مخلصة . اقسم بالله اني مخلصة في ما اقول

ــ لا تركي ولا اجنبي ، لا مسلم ولا اوروبي يسلم ، ان

امرك لعجيب ، وانك لصعبة المراس

ـ ان امري بسيط ، واني شقية . تزوجت مرة ولا استطيع ان اتزوج مرة ثانية . انا متزوجة من الحرية

ـ كلام

ـ حقاً ما اقول صدقني .

ـ اذا صدقتك وجب علي ان اسألك ان تعملي بما تقولين. انت زوجة الحرية فاجعليني اذن شريكها

ـ ما فهمت

ـ ما لا يبيحه الدين تبيحه الحرية . فما الذي يمنعك اذن من ان تكوني لي ولو الى حين

وقعت هذه الكلمة على اذن جهان وقع الصاعقة . ايريد هذا الالماني ان تكون خليلة له ، سرية ؟ هي التي هجرت قصراً واميراً لانها أبت ان تكون امة لرجل وفريسة لشهواته واهوائه . أيجيئها هذا الالماني بما نبذته نبذ النواة ، وهو يظن انه يقدم لها الدر المكنون ! ولكنها مع ذلك حدثت نفسها وهمت ان تبوح بسرها فتخبره ان ما تريده منه حقيقة هو ولد لها. وان حفلة الزفاف حسب الطقوس المسيحية او الاسلامية لا

تهمها كثيراً . وذلك لانهما يختلفان مذهباً ولا يخلص الواحد منهما في اعتناق مذهب الآخر . فما معنى العقد الديني اذن ؟ وحسبها ان تسلمه نفسها لغرضها الاعلى ، فتكون الصلة بينهما مقدسة وان كانت قصيرة الاجل . اما ان تكون خليلة محظية سرية ! فلا سمح الله . وعندما ذكر الجنرال هذا الامر نهضت عن الديوان تحتدم حنقاً وتقول :

— ان عقيدتي بالزواج لاسمى مما تظن يا حضرة الجنرال انكِ تجهلين اذن معنى الحرية

— هذا من سوء حظي ايها الجنرال . على ان ما تعرضه علي لا يليق بك وبمقامك . فقد هدمت املي . وطعنت حسن ظني طعنة اليمة

— اني لا ارى ما ترين . فاذا كنتِ لا ترغبين بي زوجاً فلماذا لا ترغبين بي صديقاً . اذا كنتِ لا تحبين ان تكوني زوجتي ، فلم لا تكوني خليلتي ؟

قال هذا وهو واقف امامها مطمئن كل الاطمئنان من نفسه

— اتطلب ذلك مني لقاء توسطك من اجل ابي ، أوَ تجعل انقاذك للاب شركاً للابنة ؟ اسمع لي يا حضرة الجنرال فون

والنستين : ان الرجل الشريف لا يسأل من يجب ان تضحي شرفها من اجله . وخرجت من البهو مسرعة خانقة ، قبل ان يفوه الجنرال بكلمة واحدة

ليس الجنرال فون والنستين ممن يروقهم تحليل العواطف الشخصية والنزعات النفسية . ولا هو ممن يحاسبون انفسهم في ما يسعون له ، فلا يفرق بين المحلّل والمحرّم من اسباب النجاح . وقد رأى في امره وجُهان انه لمن الضعف التردد ، ولمن الغضاضة التراجع فيه . ولكنه لضعفه في تحليل ثمرات القلوب ، او لرغبته عن النظر في منشاها ، كان يخطىء في ما هو وهمٌ وما هو حقيقةٌ فيها . وما كان له ان يتفهم طبائع الناس هم من غير جنسه ، ولا ان يحيط بكل ما لتقاليدهم وعاداتهم من الاسباب الغامضة . وها هو يخطىء الظن بهم ، فما هم دائماً من ابناء الزلفى والخداع ، ولا هم ممن لا ريب في دماثة اخلاقهم ولين عريكتهم . أَوَ لعل شيئاً في سلوكه شجعهم على الصلف والمكابرة ؟

بدأ الجنرال فون والنستين يرتاب في امره ، وخصوصاً بعد هذا الاجتماع بجهان . فهل اساء فهمها ، وهل اساء حقاً اليها ؟ وما هو يا ترى السبب في اخفاق مسعاه ؟ اجل قد سلم لنفسه

انه حتى ذاك الوقت مغلوب

وما السبب يا ترى؟ أمن الممكن ان تكون عظمته عرضية خارجية بنت ساعتها؟ أوَ ليس فيها شيء طبيعي دائم، قائم بنفسه، يدور على محوره؟ أم هي جزء من العظمة الالمانية؟ وما هي يا ترى قوة الفرد فيها؟ هل هي صورة في ثوب عسكري؟ وان كانت كذلك فهل تخلو من شيء روحي يعززها في غير ساعات الحرب او السياسة

واذا كان فيها شيء من السيادة الروحية التي تسود القلوب وتستهويها، فاين هي منه وجُهان؟

بمثل هذا كان الجنرال يحدث نفسه، ليقيها شر الريبة والتردد وقد صال عليها واسكتها بكونه قائد الماني، ليس الا

هو يستطيع ان يسحق التركي المتغطرس والآخر الاحمق، وان كان لا يستطيع ان يُكرِه احدهما على الاذعان لامره او لارادته. يهينه ذاك الباشا العجوز، ويحاول ذلك البك الارعن اغتياله، وترفض هذه الامرأة الشرف الذي يطرحه عليها ثم تنكر فوق ذلك عليه شرف الاخلاق. ان هذا مما لا يحتمله ولا يتساهل به. وقريباً يرى البك والباشا شيئاً من هول صولته

اما جُهان فستؤدي له الحساب على سوء ادبها وعلى تمردها . فقد اقسم بالله انها له في كل حال . فاذا أبت ان تكون زوجة له او خليلة ، فستكون فريسة لشهواته ولو يوماً واحداً . انها خارج الحريم ولكنها ليست خارج الانوثة التي يستطيع اذلالها . فهي في قبضته . تحت رحمته . وسوف تعود — قالها عالياً مطمئناً نفسه — سوف تعود

الفصل الثالث عشر

حوكم القولاغاسي شكري بك في المحكمة العرفية اولا على عصيانه الاوامر العسكرية ، فكان عقابه ان حرم وظيفته وجرد من القابه . وحوكم ثانياً على محاولته اغتيال الجنرال فون والنستين فكان قصاصه الاعدام . وقد نفذ الحكم بطلقتين من بنادق عشرة جنود يقودهم ضابط الماني . نفذ حال صدوره ، وبالضبط بعد خمسين دقيقة من تلاوة القاضي له . وقد ختمه صاحب الفضيلة بقوله : ولم تمس باذى يد المغتال الشقي سعادة ممثل الدول الوسطى . فهو ممتع بالصحة والعافية ، مقيم باعباء اعماله الخطيرة ، بعون الله . أمد الله بايامه وايد عرش جلالة المتبوع الاعظم ، سلطان البرين الخ

على ان هذه السرعة في القضاء وفي الاحكام وتنفيذها ، خصوصاً اذا كانت تتعلق بالاجرام السياسية ، اوجبها الالمان على الاتراك فرعَوها عندما كانت توافق مقاصدهم ، واهملوها في سواها . فجاملوا ووارَبوا ليبرروا ما كانوا يرونه واجباً من الابطاء والتسويف . وانك لترى منهم المثلين الان ، فهم يعملون بارادة الطاغية الالماني الذي دعا له القاضي بطول العمر وحراسة الله ، ثم يجاملونه ويسوفون

اجل ، قد حققوا مأربه في شكري بك ، ولكنهم وقفوا له بالمرصاد في ما يدبره لرضا باشا . فهم اذا استطاعوا لا يمكنوه بعونه تعالى من قصده ، وفيه اذلال سيدة تركية وامتهان شرفها . لذلك عقد الاتحاديون ، وهم اعداء الباشا الالداء ، جلسة سرية قرروا فيها مقاومة الجنرال في هذا الامر . لا دفاعاً عن خصمهم ، بل غيرة على شرف ابنته ، وبالاحرى على شرف امرأة تركية ، وعملاً فوق ذلك بالنعرتين الدينية والجنسية

وهذا ما فات الالماني فهمه ، بل هذا ما فاق ادراكه من العقلية الشرقية . فان القضاة ، مهما كان من مجاملتهم واذعانهم له ، لا يخدمون اهواءه وشهواته . وقد اقسم اولي الامر بالله والنبي ان يقاوموا الجنرال في دسيسته ويفسدونها عليه . فاذا

كان رضا باشا خائناً للوطن فامره بيد القضاة الوطنيين ، ولا دخل للجنرال فون والنستين فيه . وبناء على ذلك صدر الامر بنقل المتهم الى سجن خارج الاستانة ويمنع حتى ابنته جهان من مقابلته

اما جهان فقد اسفت لما كان من تسرعها وشدة لهجتها في حديثها مع الجنرال . فكان اولى بها التريث والصبر ، بل كانت المجاملة لازمة حباً بانقاذ ابيها . اجل ، يجب عليها انقاذه مهما كلفها ذلك . ثم تساءلت : وماذا عساه يكلفني ؟ هل في الدنيا ما هو اثمن من حياة والدي ؟ لا والله . وان السبيل الى ذلك ميسر ما زالت ترى تلك الرؤيا ، وقد وقفت امامها الامهات التركيات راسفات بالقيود . اجل ان اول امانيها وآخر امانيها انما هي الحرية . إما الحرية في انتخاب زوج لها يحترم وحدانية الزواج والحب ، واما الحرية في انتخاب اب على الاقل لولدها . في هذه الجرأة وهذا الاقدام ، ستكون جهان مثالاً شريفاً لنساء بلادها وسيكون عملها المثل الاعلى لحريتها

على انها رأت في حالها ما يحول دون العمل . فكيف تعود الى الجنرال فون والنستين حاملة قلبها بيدها . كيف يمكن ان تكون هي العارضة الطالبة ؟ ما ذكرت

ولا علمت في غير الروايات ان امرأة اقدمت على مثل هذا العمل راغبة طائعة . وان لم يحدث ما يجبرها على الاذعان لمشيئة الجنرال ، فليس ما يحملها على عمل لا يخلو من الفضيحة والعار. ما كادت تعرض لتفكيرها الاخير حتى انكر المنطق ان في ذا العمل شيئاً من العار والفضيحة . بل بالعكس فيه تحقيق حلمها الذهبي وفيه اسمى ما يتوق اليه قلب امرأة

اذن ، وقبل ان تهم بالخروج سمعت ثانية صوت الحذر والتردد . كيف يستقبلها الجنرال يا ترى بعد صدها له ونقمتها ، افلا يحتقرها ويذلها ؟ افلا يحسبها غنيمة دون ان يخفي او يموه لذة النصر عليها — ذلك النصر الذي تبجح به الطبيب الالماني في المستشفى ؟ لا . لا يهمها ما يكون من امره او من غطرسته ، ولا فرق لديها الآن بين ضحية تضحيها او انتقام تنتقمه . فهي في ذلك تحقق حلماً ذهبياً طالما تاقت اليه ، وتنقذ والدها

ان ما تبذله اذن ليسير في هذا السبيل . وما هو بالتضحية كما يظهر . انما هو بمثابة جزية تتقاضاها من الطاغية الالماني . وان ما يظنه نصراً له سيكون نصراً باهراً لها . ستذهب اليه

فتطلب العفو عن ابيها وتتركه يفعل ما يشاء . ستستسلم راغبة وهي تظهر انها اسيرة . ولكنها اذا فعلت ذلك وتم لها ما تريد ، اينعم الله عليها بمن تأمل ان يكون مخلص امتها يا ترى ؟

سألت نفسها هذا السؤال ، واجابت بالايجاب : ان شاء الله

الفصل الرابع عشر

بعد ان سلمت جهان نفسها تسليماً حسبته نصراً مبيناً لها ، خرجت بعيد منتصف الليل من منزل الجنرال فون والنستين وهي تقاسي من حقائق الحياة اعمقها سراً ، واشدها الماً ، واقبحها عاقبة . فتراءى لها ، من خلال الخيال الذي كان يمازج شعورها ، شبح مخيف في ظلال اخربة قديمة . شبح هائل لا يبعده منها المنطق ، ولا تلطفه المجاملة . هو بعيد قريب ، مريب رهيب . شبح كالليل الحالك ، وقد تجسم كالعبد سليم الذي كان ينتظرها خارج بيت الجنرال . فخيل اليها انها تستطيع ان تقبض عليه بيديها وهو جالس امامها في العربة . ثم تراءى لها في شكل غريب مخيف ، كانه وحش من وحوش الغاب يتحفز للوثوب

عليها . بل احست ان مخالبه تمزق جسدها ، وان انيابه تنهش قلبها

احبت جهان الجنرال فون والنستين حباً صادقاً شديداً الى حين ، ثم البست حبها ثوباً من البغض والازدراء . احست بعوامل الحب او بما يشبهه ، وادركت بعدئذ انها ضحت في سبيله شرفها . هذه هي الحقيقة التي رأت فيها الاثم والعار

ولكن في الحقيقة الاخرى ما يعزيها بعض التعزية ، وان كان لايبرىء ساحتها . غداً يخرج والدها من السجن . غداً تجتمع به . فماذا تقول له . ان سماء الحرية مكفهرة مظلمة . وان الشبح ليتتبعها

دخلت منزلها وهي تود ان تكون قد نجت منه . ومن اين لها ذلك وهي تحاول الفرار من الخوف والعار ؟ فقد كانت تخجل ان ترى احداً من الناس ، حتى سائق عربتها ، او عبدها الرقيق . دخلت حجرتها مسرعة واوصدت الباب . ومن اين للابواب والاقفال والمفاتيح ان تحجب عنها افكارها وهواجسها التي لازمتها لزوم الظل ؟ نزعت ثيابها وهي تعاني دواراً مؤلماً ، فبدت الاشياء والخيالات في رؤياها متنوعة الاشكال والالوان . اية يد بشرية او شيطانية او مقدسة قبضت عليها ، فجرتها الى

ابواب نعيم مريب ، يخفره الوحش الاشقر ؟ انه لوحش هائل مخيف ، وقد كشر عن انيابه للفتك ! له عين تبدد الظلمات ومخالب تبرق في ضوء القمر وزئير ، اذا رمى بنفسه على صدرها ، ينصت الرعود . لله من تلك الساعة وسيف القضاء مشهور فوق رأسها ونيران الحياة تضطرم عند قدميها ! وحولها هاوية الظلام لا قرار لها ! ومضجعها الوردي يتهزز عند باب الجحيم !

فصاحت يا لله ! وقد انطوت ، وهي تحجب وجهها بيديها ، في كرسي احمر قاني ، كانها تحاول ان تحجب هول الرؤيا امامها . وحيدة هي في شدتها وبؤسها ، تتقاذفها نزعات النفس الحائرة المبلبلة المرعبة ، فتصاعد انفاسها الحارة من صدر ملتهب . ولا معين لها ولا قوة . وكانت الظلمة اذ اغمضت عينيها اشد هولا عليها

نهضت تفتح النافذة ، وتستنشق الهواء النقي ، فعاودتها الهواجس المروعات . هناك وراء مياه القرن الذهبي الهادئة ، وراء سروات جامع ايوب المطمئنة ، وراء مآذن استمبول وقبابها ، بدا لها ذلك النعيم المريب وذلك الوحش الاشقر واقفاً في الباب

فصرخت ثانية يا لله ! ماذا فعلت ؟ ولماذا لم اذبح الوحش الضاري ؟

قبضت يسراها بيمناها ، كأنها تحول دون العمل الذي حدثتها به نفسها ، وهي تقول : انها لحماقة ! انه لجنون ! ثم جمعت نفسها وجلست على الديوان تفرك جبينها بيدها ، فاستفاقت الى ما بها من جفاف وأحست ان فمها كالتراب وان دبيباً كدبيب النمل يتغلغل في جسمها

ايقظت جاريتها وامرتها بكأس من الشراب ، وبماء فاتر للحمام . فارتاحت بعد ان استحمت وانتعشت ، وعاد الى عينيها النور الذي مزق اغشية الخيال واراها انها في حجرتها الخاصة ، وان كل ما كان هناك في محله . هذه هي منضدتها ، وهذا قلمها ، وهذه اوراقها وكتبها ، وهاك فوق المنضدة الآية القرآنية في الزواج وقد طرزتها بيدها على قطعة من الحرير : « فان خفتم الاّ تعدلوا فواحدة . » قرأتها مرة اخرى وهي تردد : فواحدة ! واحدة ! وما عسى ان يكون عدل الرجل نحو المرأة ؟ ايسمح له النبي باربع زوجات ثم يسأله ان يكون عادلاً ؟ ان هذا تنازل منه وتلطف

حولت نظرها من الاطار الى الاوراق على منضدتها ،

فشرعت تقلبها ، وفيها من الحكم الانكليزية ، والاقوال الفرنسية ، والحقائق الهائلة الالمانية ، مما كانت تترجمه الى التركية ، متراكمة بعضها فوق بعض ، مبعثرة شذر مذر مع عدد من المقالات التي كانت تكتبها ونتف من مقالات لم تنجزها ، وخطرات من هنا وهناك تمثل ما في روحها من طموح الى العلى وآمال بالمستقبل . وقد عثرت وهي تنقب في الاوراق ، والبصيرة منها شاردة ، على صورة الامر الذي اصدره ابوها :

«يجب ان تمتنعي عن مقابلة الجنرال فون والنستين ومراسلته»

وماذا يقول والدي عندما اراه ؟ كيف استطيع مقابلته وجهاً لوجه ؟ ماذا اقول له ؟ أاخادعه ؟ أاكذب عليه ؟ كلا ثم كلا . سأصدقه الخبر . سانبئه بالحقيقة . واية حقيقة ؟ انها بذلت شرفها من اجله ؟ انها قبلت من يد الالماني القليل المتبقي من سني حياته ؟ ليس ذلك بالحقيقة كلها . فالجزء المهم منها انما هو الحرية ، بل حياة الحرية التي تنشدها لابناء بلادها ، الحرية التي جعلت جهان اماً ! ايفهم ابوها يا ترى ويصفح عنها ؟ ايطردها من البيت غير آسف ! والى اين تذهب ؟ وماذا يقول الناس فيها ؟ ارحمني يا الهي

كانت تردد هذه السؤالات ، وقد تذكرت اولئك الذين

تألبوا في الجوامع ، فنقل عبدها سليم كلماتهم اليها . شبكت يديها حول رأسها ، مكبة على المنضدة ، والمخاوف تتجاذبها . فذعرت وتراءى لها الوحش الاشقر مرة اخرى

وكان امامها على المنضدة اصبع من الكافور ، فتناولته وفركت به جبينها وما فوق جبينها . ثم تناولت كتاب نيتشه « هكذا تكلم زرادشت » فقلبت في صفحاته ، وهي ترجو ان تثقل جفنيها بنعمة النوم . فجاءت المطالعة بعكس ما املت ، وما كان تأثيرها كالسابق . أنبي هو ؟ وما الفائدة من نبي لامرأة تعتقد بآية من القرآن ؟ ما الفائدة من تعدد الانبياء ومن الازدياد وكلهم واحد في ما يتعلق بالمرأة ؟ الحب — الرحمة — العدل — كلها يتفضل بها الرجل على المرأة ، كلها صدقة منه ، شرقياً كان او غربياً ، نبياً كان او شاعراً او حمالا . — لا تصحب المرأة الا والسوط معها — !

هذا ما يقوله اول الانبياء وآخرهم . يردد الواحد صدى الآخر . أوَ يكون السوط اباً للحرية المولودة من امرأة؟ أيجيء هذا الوحش الاشقر من الشمال قضاء وقدراً ليذلني ويجعلني اماً؟ أتتولد الاجنحة الذهبية من جروح في نفسي دامية ؟ — لا تصحب المرأة الا والسوط معها — !

لقد تعبت من نيتشه وخاب املها به . فانه ما جاءها حتى بقليل من الوسن . فلجأت لذلك الى دواء سليم عبدها . وما هي الا دقائق حتى اخذت افكارها المشتتة الثائرة تتقلص شيئاً فشيئاً كما يتقلص الظل . فاغمضت عينيها وهدأت نفسها . الا انها ظلت حتى آخر اليقظة ترى وتقرأ هذه العبارة مكتوبة باحرف من دم :- لا تصحب المرأة الا والسوط معها-

وقد حلمت تلك الليلة حلماً مزعجاً مخيفاً ، تراءى لها فيه رجلان يدخلان سجناً ويقتلان سجيناً قتلة فظيعة . يوثقانه ويكمان فاهه ويقطعان شرياناً في احد معصميه ، فيجري دمه وهو يتململ ويئن . سمعته جهان يئن انين الموت ورأت الرجلان ينتظران نَفَسَه الاخير ، وما ان لفظه حتى حلّا الوثاق وانصرفا

تبينت جهان وجه السجين المذبوح فصاحت : ابي ابي — قتلوا ابي في السجن واستوت في فراشها مذعورة ، محملقة العين ، مصفرة اللون . فنادت الجارية وقصت عليها المأساة :

— الدم فأل حسن ، خانم . كذلك كانت امي تخبرني ، وقد كانت تحسن تفسير الاحلام . نعم خانم ، الدم سعادة . واني اعتقد ان سيدي والدك يكون معنا قريباً ان شاء الله

الفصل الخامس عشر

لبثت جهان ترقب قدوم ابيها ، وقلبها يتلظى بين اليأس والامل فقد هالها الحلم الذي حلمت ، ولكن الجنرال فون والنستين وعدها انه سيخرج اباها من سجنه في ذلك النهار . فمرت الساعات — التاسعة منها والعاشرة والحادية عشرة حتى الظهر ، ولم يعد ابوها ، ولا جاءها خبر عنه . خاطبت الجنرال بالتلفون ، فقال لها انه قادم اليها ليعلمها بسبب التأخير

وبعد قليل جاءت الخادمة بالجريدة فتناولتها جهان وطالعت فيها خبر موت والدها منتحراً الليلة البارحة . وقد جاء في الاذاعة الرسمية انه قطع احد شرايين معصمه بزجاجة من المصباح الذي وجد مكسوراً على الارض

قرأت جهان هذا الخبر، كما تقرأ خبر الوقعات الحربية، هادئة البال ساكتة . فلم تتأثر ظاهراً ولا هي فاهت بكلمة . انه لمن غريب الامور ان الخبر لم يحرك فيها مظهراً واحداً من مظاهر الحزن . كأن الصدمة المفاجئة تعقل اللسان . بل كأن الحزن الذي يتناهى شدة فيرفع الفؤاد الى اوج الفجيعة ، يؤثر في المرء تأثير الجو العالي فيسكت ويقصر النفس . او كريح الشتاء الباردة تحوّل ماء الغدير الى جليد مقزز

والذي زاد بجمود نفس جهان انها رأت الفاجعة في الحلم كما حدثت . فقد شاهدت السر الفظيع وتحققت كل شيء : الاوامر الرسمية — المكيدة — الاغتيال — الاذاعة الملفقة . اجل ، قد قتل والدها قتلة فظيعة . ولا عجب ان يكون للجنرال والنستين يداً في المكيدة . او انه علم بها وتجاهل الامر ليتمم تمثيل دوره المنكر ، وهو يتظاهر انه يعمل من اجلها لتظل صفحته بيضاء عندها . قبحه الله ! انه فجعها باخيها وحرمها ابن عمها — وقتل اباها ! وفوق هذا كله هو قادم الآن لمقابلتها . لله من غدر هذا الرجل ما ابعده غوراً . لله من مكره ما اشده ، ومن قحته ما ادناها

— انه قادم ليتفقد حالي (سيقولها بصوت ناعم وهو

يبتسم) وليهنئني بحريتي

تقلصت شفتاها لما جاش في صدرها ثم ضحكت ضحكة ازدراء وهي تقول :

— أجل ساقابله بما يليق بمقامه السامي

ثم ذهبت الى غرفتها مخلدة الى اجمل واهدأ ما في نفسها من الطباع

وجلست مكبة على المرآة ترين وجهها

— عليّ ان استعد لمقابلة سيدي

ثم دست انامليها البيضاء الناعمة في شعرها الذهبي فارخته ، وسرحته ، وضفرته جديلتين : اكراماً لسيدي — من اجل محقق احلامي — من اجل عشيقي القادم من الغرب . قالت هذا وهي تمر ميل الكحل بين هدبيها

ثم خلعت ثيابها ، وبعد ان دهنت جسدها بالطيب ، ارتدت فستاناً شفافاً اخضر اللون ، ومشت تجر ذيله تيها . ثم لبست فوقه سترة موشاة بالذهب شدتها الى صدرها دون ان تجور على ثدييها ، وتمنطقت بمنطقة اقل اخضراراً من الفستان معقودة من الامام ، وهي تبخل على خصرها ، فظل بادياً في لينه وتمايله . اما خفاها فكانا من الحرير المقصب ، كسترتها رسماً

ولوناً ، وقد زانت ما فوقها بخلخال من الذهب المرصع بالحجارة الثمينة . هي السلطانة الفتانة ، هي حورية الجنان . وقفت في هذا الزي ، ويداها مشبوكتان حول نحرها ، تنظر شرراً في المرآة ، وتصعد الزفرات

ثم قالت وهي تمزج في كفها نقطة من عطر الورد ببضع قطرات من زجاجة باريسية وتدهن صدرها : من اجل سيدي

جاء الجنرال فون والنستين مساء فأعلن قدومه اليها ، فسارعت ترحب به عند الباب

ـــ اهلاً وسهلا بالجنرال . اني مسرورة جداً بقدومكم

قالت هذا وهي تبتسم ابتسامة ناعمة فتانة . فدهش الجنرال لهذا الزهو منها وحار في امرها . وقد كانت في ما ارتدته على الزي التركي ، الذي لم يشاهدها فيه قبل اليوم ، تزيد في افتتانه وتحيره . فهلا بلغها خبر قتل ابيها ؟ انه يرجح انها لا تزال في جهل من الفاجعة . لذلك يراها في زينة العيد لقدومه ، لقدوم عشيقها ، من ظفر بها . وان ذلك لعيد عندها . ما خالج ابتهاج الجنرال شيء من الريب بما شاهد . وقد رأى الا يكدر عليها وعليه صفوة تلك الساعة باطلاعها على ما حدث . بيد انه لا بد من التلميح الى الموضوع اطمئناناً لها . فجلس الى جنبها على

الديوان وقال :

— يصعب على رجال الحكومة ان ينجزوا اعمالهم بسرعة في هذه الايام

— قد يُعذر وزير عثماني اذا لم ينجز في الحال اوامر الجنرال ، ولكن هذا الابطاء عادي ، وقد امسى صفة لازمة لدوائر الحكومة

— صدقت ، هذا هو الواقع

وكان مرتاحاً لهذا الاتفاق في النظرتين ، نظرته ونظرتها ، فاغتنم الفرصة لتغيير الموضوع

— وما كنت تطالعين قبل مجيئي ؟

— كنت اطالع كتاب نبيكم صاحب « الوحش الاشقر » تناولت الكتاب وهي تتظاهر انها معجبة به

— نعم ان نيتشه لمن اعظم نوابغنا ، ويقال انه شاعر اكثر منه فيلسوف . اما انا فلا احفل به كثيراً . وقد حاولت مرة ان اطالع كتابه هذا فما استطعت . وقد يكون السبب . ان نيتشه كثير الخيال مما لا يتفق مع مزاج الجندي . . .

ما اجملكِ وما ابهاكِ في هذا الزي الوطني ؟

— هو من اجلكَ

وشفعت كلمتها بلحظة ذابلة ، فضم يدها بيديه ، ثم رفعها الى شفتيه

وجاء اذ ذاك سليم بالقهوة فتناول الجنرال فنجاناً . وبين هو يرشفه استوقف نظره متحف الاسلحة امامه ، فقال :

— لابيك مجموعة جميلة من الاسلحة

وكانت جهان قد استقبلته في الدارخانة لهذا الغرض — لكي تريه السلاح ! فنهضت لغرضها ومشت الى الخزانة ، وهي كالرديني قداً وليناً ، تقول :

— سأريك المهم منها . هذه قطعة مغشاة بالصدأ ولكنها من اثمن التحف . هي من القرن الرابع عشر ، وقد اهداها اليه السفير الفرنسي . وهذا الرمح هدية من احد مشايخ العرب . وهذا النصل الدمشقي غنمه قائد تركي في احدى وقائع السلطان سليم

ثم انزلت سيفاً شهرته من غمده المصدىء

— اتقرأ الكتابات الاثرية ؟

— كلا . انما هذا حسام بديع . وما اجمل قرابه المرصع ! بهذه الحجارة الثمينة ؟

— نعم ، هي من الزمرد والياقوت — وقد صاغها صانع

هندي فجاءت خالية من الترتيب والاتقان . وهذا حسام الماني اظنه من صنع هذا العصر ، وهو هدية السلطان عبد الحميد الى والدي يوم تقلد منصب الصدارة العظمى ... اما هذا السيف المكسور فله قصة غريبة . أَوَ تريد ان اقصها عليك ؟

— جيء الى والدي في حربنا الاخيرة مع اليونان باسير من الضباط . فساله ان يسلم سيفه ، فأبى قائلا انه أثر تاريخي عزيز في عائلته ، فقد ورثه عن ابيه الذي ورثه عن جده ويعز عليه فقدانه . وهو يفضل ان يكسره من ان يسلمه الى العدو . فسر والدي بكلامه وعزة نفسه وسمح له بالسيف . اخذه منه ، ثم اعاده هدية اليه . على ان الضابط اليوناني أبى ان يكون سيفه من فضل قائد تركي ، وأبى لذلك ان يكون اسيراً له . فكسر السيف على ركبته ، ثم اطلق على نفسه رصاصة من مسدسه . فتذكاراً لتلك الحادثة واحتراما لذلك اليوناني الباسل الشريف احتفظ والدي بنصف السيف .

— ولكن التركي اشرف منه وابسل

— دعني اقص عليك قصة اخرى ، ايها الجنرال ، فلو كان لهذه المدية لسان لنطقت بما سأقول :

عندما كان والدي ملحقاً عسكرياً في السفارة العثمانية بباريس ، كان يتردد الينا نائب فرنسي يقاربك سناً وهو يحب الاتراك ، كما كان يقول ، ويحسن اللغة التركيـة . وكان والدي يسمح لامي ان تستقبل الضيوف سافرة . فاكثر النائب من زياراته وكثيراً ما كان يشرك زوجته بها . لكنه جاء ذات ليلة بينما كان والدي في التياترو مع بعض اصحابه ، ففاجأ امي وروّعها ... وقد جثا امامها يقبل قدمها ويفصح عن شدة هيامه بها . فصدته وطردته من البيت . لكنه عاد غير مرة ، وقد تحول هيامه الى شهوة وحشية . فعمدت امي الى حيلة للتخلص منه ، مشت تستهويه الى حيث كانت هذه المدية — هذه المدية بعينها — فقبضت على لحيته وطعنته طعنة في قلبه قاضية

تعجبت جهان من مقدرتها في الاختراع وكيف لفقت هذه القصة وارتجلتها ارتجالاً لتناسب ما تكنه للجنرال . ولكنها اسرفت في التلميح فاكمدَ وجه « سيدها » وبدا في ملامحه أثر الاضطراب . وكان ينظر اليها وهي واقفة امامه والمدية بيدها واجماً باسماً معاً . فسارعت لذلك الى ما فيه الاطمئنان

— ولكن اجمل ما في هذه المجموعة واثمنها هي في قاعة

اخرى . هلم اريكها

لقد زال الخطر الذي أحس الجنرال به ، فمشى وراء جهان آمناً مطمئناً ، وهو يتأمل حسن قدها ، ويسترسل بكل حواسه الى فتنة جمالها

وعندما دخل غرفتها الخاصة ظن نفسه في نعيم قصصي ونسى انه جندي لا تستولي الاوهام عليه . فبادر الى ما فيه الحقيقة كلها وقال يحدث نفسه وينظر الى اليد الناعمة البيضاء بيده : لا قصة ، ولا وهم ها هنا . ثم طوق جهان بذراعيه وهمّ بتقبيلها ، فتفلتت منه وهي تقول :

— لا تستعجل النعيم

ولكنها اولعته بنظرة وابتسامة ، ومشت الى حيث كان السيف معلقاً ، فوق الديوان ، فتناولته قائلة :

— هذا اثمن السيوف واجلها معنى . هو كنز من كنوزنا العائلية ، والتاريخية . اما قيمته فهي في نصله لا في نصابه

استلت جهان السيف بشدة ورشاقة فاهتز ولمع . ثم مرت بباهمها على حده لترمز الى مضائه واستأنفت الحديث

— هذا نصل قديم . اتصل بابي من احد جدوده الذي حارب النصارى امام ابواب فيانا . وقد استأمنني عليه بعد آخر

انجاله ، وقال : ليكن لعريسك الذي سيرث شرف اجدادك . ان شاء الله . هو لك يا حضرة الجنرال فون والنستين

وما كادت تشرق سروراً أسرّة وجه الجنرال حتى كانت جهان قد ضربت ضربتها الاولى بيد ثابتة فسقط على الارض والدم يسيل من عنقه . فهمّ بالوقوف ، وهو يردد بصوت خافت : غدارة خائنة . فضربته الضربة الثانية ، وطعنته في صدره . أوغلت السيف في قلبه وهي تحمد الله ، وتقول :

ـ ذبحت الوحش الاشقر

الفصل السادس عشر

في تلك الليلة ، ساعة لفظ الجنرال فون والنستين نَفَسه الاخير ، خاطبت جهان مدير الامن العام بالتلفون تعلمه بما جرى. فخاطب المدير الصدر الاعظم قبل ان يحرك ساكناً ، وجاء بعد ذلك بنفسه — وحده — الى بيت المغفور له رضا باشا ، فاستقبلته جهان في الدارخانة واجابت على بعض اسئلة سالها . ثم أدخلته الى غرفتها فشاهد الجثة على الارض مضرجة بالدماء . وقبل ان خرج من البيت فرض على الخدم السكوت التام

وفي اثناء ذلك دعا الصدر الاعظم وزير الحربية ووزير الداخلية الى بيته ، وانضم اليهم بعدئذ مدير الامن العام فعقدوا اجتماعاً سرياً بعد منتصف الليل للبحث في الامر ولاتخاذ التدابير

اللازمة لحفظ الامن والسكينة ، ولدفع الظنون التي تؤدي من جهة الى هياج الشعب على الالمان ، ومن جهة اخرى الى سخط الالمان على الاتراك واستيلائهم التام المطلق على الحكومة

وقد اختلفوا في النظر الى الجريمة واسبابها ، فقال مدير الامن العام انها كانت دفاعاً عن النفس

— طلب الجنرال فون والنستين من السيدة جهان ان تقترن به فرفضت ، فاصر فصدته . وجاء الليلة يهددها ، وقد حاول اكراهها على ما يبتغي منها ، فقتلته دفاعاً عن عرضها وشرفها

فقال احد الوزراء : اذا علم الشعب ذلك يثور على الالمان

وقال الآخر : اظن انها قتلته انتقاماً لاخيها وابن عمها . وارى ان يكون الظن يقيناً ، وليس فيه ما يبرر ساحتها

فاجابه مدير الامن العام : اذا تغاضينا عن ذكر الحقيقة ، فيجب علينا ان نعمل على الاقل بموجبها

فذكرهم الصدر الاعظم ان الامة في حرب وان الالمان حلفاؤها وان التوسع في بحث هذه المأساة يجر الى ما لا تحمد عقباه

لذلك قرروا ان تحاكم جهان باسرع ما يمكن — في الحال .

وقرروا كذلك ان تصدر الحكومة بياناً رسمياً تقول فيه ان الجريمة محض شخصية، ولا علاقة لها بالسياسة، او بالوطن والملة. والمرجح ان الامرأة أغرت الجنرال بان دعته الى بيتها، وقتلته انتقاماً لاخيها — فلتطمئن الامة، ولتتيقن الخليفة المحبوبة ان العدالة العثمانية لا تتردد ولا تبطىء في اعزاز الحق وازهاق الباطل

جاءت الشرطة بجهان الى السجن قبل ساعة الفجر

وصدر البيان في ذاك اليوم فنشرته الجرائد، وما نشرت، يومئذ ولا بعدئذ، عملاً بامر سري، شيئاً آخر بخصوص الجريمة

دفن الجنرال فون والنستين بما يستحقه من الاكرام والاجلال

وعقدت المحكمة جلسة سرية لمحاكمة جهان فحكمت عليها بالاعدام

وفي فجر اليوم الثالث أخرجت من السجن، ونُشر في الجرائد خبر رسمي ان الحكم بالاعدام على جهان ابنة رضا باشا قد نُفذ شنقاً صباح ذاك اليوم

* * * * * * *

صفر القطار في محطة حيدر باشا، وراح يجري ويهدهد في

بر الاناضول . وعندما وصل الى قونيه خرج من احدى عربات الدرجة الثالثة عبد اسود طويل نحيل يحمل كيساً من الامتعة ، تتبعه امرأة في ثوب اسود وحجاب من لونه كثيف ، تحمل رزمة من الثياب وقد سمعت المرأة تنادي العبد : يا سليم

اقامت هذه الامرأة في بيت خارج البلدة ، عند غابة من الصنوبر والسنديان ، وشرعت تكتب كتابها الاكبر « الامة الجديدة » التي كانت تفكر به ، ولا تستطيع ان تباشره في الاستانة ، لكثرة اشغالها وهمومها هناك

وكانت الايام تزيد بسرورها ، لما كانت تنجز من عملها . وقد احست في الشهر الرابع بما فيه السرور الاكبر ، لانها ادركت في التأليف والتوليد ما قلما تدركه امرأة مثلها . فقد كانت تكتب كتاب « الامة الجديدة » وتعد لتلك الامة ابنها الابر ورجلها الاكبر .

وكلما عاودتها الذكريات المؤلمة كانت تبرر نفسها على ما فعلت غير آسفة فتقول . اخذت ما اريد منه ، وثأرت لابي واخي وابن عمي

وفي ذات يوم من ايام الصيف في السنة التالية ، مر بذاك البيت احد الصيادين ، فرأى عبداً في الباب — هو العبد سليم —

يحمل طفلا جميل الوجه ، اشقر اللون ، ازرق العين ، ذهبي الشعر . وسمعه وهو يتغتغ له ويناديه باسمه : مصطفى

وكانت الام كلما ارضعت ابنها مصطفى تحمد الله على ما حملت في احشائها وفي عقلها ، وتفكر وهي أليفة الابتهاج ، بما تعد في ما تكتب كذلك ، لامة الترك الجديدة

حقوق الطبع والنشر محفوظة

T.

back

*PB-37348
5-20T
C-C

Elmer Holmes
Bobst Library

New York
University

PERMA-BOUND

NYU - BOBST
31142 01255 1696
PJ7860.I45 K5 1948 Kharij al-

PJ
7860
.I45
.K5
1948
c.1